الفصل الثالث

النُخب الفكرية

أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، شهدت هذه المدة أحداثًا مفصلية في تاريخ المنطقة العربية من ناحية مطالبة العرب بإلغاء التمييز بينهم وبين الترك في ظل الخلافة العثمانية والمطالبة بالاستقلال عنها، وقيام حركات التحرر الوطني والقومي، والحصول على الاستقلال المشروط من دول الاستعمار الغربي. من رواد الحركة الإصلاحية وطلائع النهضة القومية العربية والإسلامية مفكرون ممن أيدوها أو انتقدوها ، وهنا نجد لزاما علينا أن نتوقف عند بعض أسماء هؤلاء، وذلك قبل أن نكمل مراجعة المشروع النهضوي، لأن أصحابها هم المرجعيات المهمة التي يمكن أن يُبني المشروع القومي العربي بالرجوع إليهم. من هؤلاء من سنأتي بالحديث عنهم بشيء من التفصيل، وذلك لثراء فكرهم وخصب معرفتهم واتساع بيانهم، سواء في طرح الفكر ونقده من أمثال: جمال الدين الأفغاني - المؤرخ شفيق غربال – ياسين الحافظ – الطهطاوي – الدكتور علي عبد الرازق – هاشم العطار – فارس الحلبة – محمد فاروق الخالدي – رئيف خوري – عزيز العظمة – الشيخ كشك – الشيخ الغزالي، أو من أجل التعرف على كيف عاد العرب إلى خصوصيتهم الثقافية القومية.

لقد كان لهؤلاء المفكرين والإصلاحيين من قوميين ومسلمين وعلمانيين دور كبير في إذكاء الروح الوطنية والقومية والإسلامية على حد سواء، فقد تجاذبت الأطراف المختلفة مواضع التأييد القومي بين جمهور المثقفين فانقسموا بين هذا وهذا إلى أن أصبح العرب يتجهون نحو القرن الحادي والعشرين بعد غليان المد القومي الذي غطى بفوران غير عادي الربع الثالث من القرن العشرين الذي حفل بمفكرين ومنظرين وقادة قوميين من رواد النهضة العربية الحديثة، ليس سهلاً حصرهم أو ذكرهم الآن. وما زال الغليان مستمرًا بل وحدث ما حدث من ثورات بعد ذلك منذ يناير سنة ٢٠١١م، والتي سيأتي الحدي عنها باسهاب لاحقًا.

- من رواد الفكر القومي:

▪ عبد الرحمن الكواكبي

مفكر وعلامة عربي سوري من أصل فارسي. هو رائد من رواد التعليم ومن رواد الحركة الإصلاحية العربية.. كاتب ومؤلف ومحام وفقيه شهير.

ولد الكواكبي عام ١٨٥٤م في ولاية حلب العثمانية لعائلة لها شأن كبير. والده هو السيد أحمد بهائي بن محمد بن مسعود الكواكبي، وأحد أجداده (إسماعيل الصفوي) مؤسس الأسرة الصفوية الشيعية في تبريز، التي حكمت إيران قرابة قرن ونصف من الزمان. والده جاء مهاجرًا من بلاد فارس إلى حلب.. كان علمه واسعا جعل منه حجة في علم الميراث، فصار أمينا لفتوى الولاية مدة من الزمن، وصار مستشارا وقاضيا.. تزوج من سيدة حلبية أنجبت نسل الأسرة الكواكبية، هي السيدة عفيفة بنت مسعود آل نقيب وهي ابنة مفتي أنطاكية في سورية.. توفيت وعمر "عبد الرحمن" ست سنوات فظل عند خالته بمدينة انطاكية ثلاثة أعوام. تعلم اللغة التركية من خالته وتتلمذ على يد عم أمه "نجيب النقيب" الذي شغل منصب الأستاذ الخاص للأمير المصري الخديوي عباس حلمي الثاني.

درس عبد الرحمن الكواكبي العلوم العربية والشرعية إلى جانب المنطق والرياضة والطبيعة والسياسة في المدرسة الكواكبية التي كان أبوه مديرًا ومدرسًا فيها. وبعد تخرجه من المدرسة الكواكبية ونيله الإجازة، اشتغل بالتدريس مدة وكان عمره

عشرين سنة. لم يكتف بالمعلومات المدرسية فقط بل اتسعت آفاقه أيضًا فصار نهما بالإطلاع على كنوز المكتبة الكواكبية التي تحتوي على مخطوطات قديمة وحديثة، فاستطاع أن يطلع على علوم السياسة والمجتمع والتاريخ والفلسفة وغيرها من العلوم.

كتب عبد الرحمن الكواكبي في عدة صحف وانشأ صحيفة الشهباء مع "هاشم العطار، فكانت مقالاته النارية العميقة توقظ ضمائر مواطنيه، وتفضح الاستبداد العثماني. ولما أغلق الوالي صحيفة الشهباء أنشأ الكواكبي جريدة الاعتدال لكنها هي الأخرى أغلقت بسبب كتاباته الساخنة. شغل الكواكبي عدة أعمال ومناصب رفيعة في ولاية حلب. رحل إلى مصر واستقر هناك وكتب في كثير من الصحف المصرية والعربية وزار عدة بلدان في أسيا وإفريقيا، كان في كل بلد ينزلها يدرس حالتها الاجتماعية والاقتصادية من مختلف المجالات.

دعا الكواكبي إلى إصلاح أصول تعليم اللغة العربية والعلوم الدينية والجديد في أصول توحيد المناهج في الولايات العربية العثمانية.. دعا إلى محو الأمية والى تعليم المرأة حتى تجيد رسالتها في الحياة. لذلك اعتبر الكواكبي من أعلام الحركة الإصلاحية، فوجه جهوده إلى العمل الأخلاقي، وكافح العادات السيئة والتقاليد البالية، ونقد المعتقدات الفاسدة، عمل على تشكيل الجمعيات والنوادي في القرى والمدن لتقوم بدور التوعية والتثقيف للجمهور، كما رد فساد الأخلاق إلى انحلال الرابطة الدينية والاجتماعية وفقد التناصح وغياب الأخلاق، حيث قال الكواكبي: "فلمثل هذا الحال لا غرو أن تسأم الأمة حياتها فيستولي عليها الفتور، وقد ذكرت القرون وتوالت البطون ونحن على ذلك عاكفون..". (كتاب أم القرى)

هذا، ويعتبر عبد الرحمن الكواكبي واحدًا من المفكرين العرب الذين كشفوا عن أسباب الجمود الذي خيم على العالم الإسلامي، وقارن ذلك بحالة التقدم التي وصل إليها الأوربيون في العصور الحديثة، والتي مكنتهم من الهيمنة على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي. في كتابه أم القرى يقول الكواكبي أيضًا، "إن مسألة التقهقر بنت ألف عام أو أكثر، وما حفظ عز هذا الدين المبين كل هذه القرون المتوالية إلا

متانة الأساس، مع انحطاط الأمم السائرة عن المسلمين في كل الشؤون، إلى أن فاقتنا بعض الأمم في العلوم والفنون المنوّرة للمدارك، حزبت قوتها فنشرت نفوذها على أكثر البلاد والعباد من مسلمين وغيرهم، ولم يزل المسلمون في سباتهم إلى أن استولى الشلل على كل أطراف جسم المملكة الإسلامية".

لقد أمضى الأديب المفكر عبد الرحمن الكواكبي حياته كلها مصلحًا وداعية إلى النهوض والتقدم بالأمة العربية ودعا المسلمين لتحرير عقولهم من الخرافات، وقسم الأخلاق إلى فرعين، فرع أخلاقي يخدم الحاكم المطلق، وفرع يخدم الرعية أو المحكومين، ودعا الحكام إلى التحلي بمكارم الأخلاق لأنهم الموجهون للبشر، ودعا لإقامة خلافة عربية على أنقاض الخلافة التركية، وطالب العرب بالثورة على الأتراك وحمل الحكومة التركية المستبدة مسؤولية الرعية. في كتابه "أم القرى" استهواه أن يعرض فيه آراءه الإصلاحية فكانت أغلب مواضيعه هي انتقاد الشعوب الإسلامية ولكن بأسلوب مسلٍ. وأما كتابه "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" فقد نقد فيه الحكومات الإسلامية. قال واصفًا الاستبداد: "الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان، التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء، بلا خشية حساب ولا عقاب".

اختلف المفكرون في بعض آراء عبد الرحمن الكواكبي هل هو من رموز الإصلاح في القرن التاسع عشر؟ وهل هو علماني يؤيد فصل الدين عن الدولة؟! لهذا عكف نفر من الباحثين فاطلعوا على مخلفات آثار الكواكبي وحللوها. من هؤلاء "فارس الحلبة" الذي يؤكد اتفاق الباحثين على أن الدكتور "علي عبد الرازق" هو أول من نادى إلى فصل الدين عن الدولة وليس الكواكبي، وأن لا صحة لما ذكره الباحث اللبناني "جان داية" الذي يقول بأن الكواكبي طالب بفصل الدين عن الدولة مستندا إلى قول الكواكبي، "هذه أمم النمسا وأميركا قد هداها العلم إلى طرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري، فما بالنا لا نفكر في أن نتبع إحدى تلك الطرائق أو شبهها؟". لكن "الدكتور عمارة" حسم الأمر، ووضع النص في سياقه الطبيعي

ووجد أن الكواكبي كان يتحدث إلى نصارى العرب وليس إلى عامة المسلمين، وأن الوفاق بينهم وبين المسلمين العرب أقوى من الوفاق المذهبي بينهم وبين المستعمرين الأوروبيين.

هذا، وإن الكواكبي في نواح كثيرة من كتاباته كان ينقد الحكماء الغربيين الذين ابعدوا الدين عن السياسة، وكان يرى أن هذا توجه علماني غربي يعود سببه إلى طبيعة الديانة المسيحية التي تختلف عن طبيعة الإسلام، فإن كان يوجد عذر للغربيين في التوجه إلى العلمانية فإن الديانة المسيحية هي السبب. لهذا لا عذر للمرجعية الإصلاحية في ظلال الإسلام في أن تستبعد الدين.

كان الكواكبي علمًا من أعلام التيار الإصلاحي في الإسلام مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وغيرهم من كوكبة المفكرين الإسلاميين. من الصور الجميلة لعبد الرحمن الكواكبي انه لم يكن معوزا أو فقيرا حينما كان ينتقد الاستبداد، لأنه لم يسع إلى منفعة شخصية، فقد كان ميسور الحال وتقلد مناصبا يحسده عليها الآخرون، ولم يكن بحاجة احد. لكن شعور الكواكبي بالظلم ورهافة إحساسه بالحرية وعشقه الذي لا يوصف لها، كان الدافع الأول لمواقفه وآرائه التقدمية. ألف الكواكبي كتبا أخرى مثل، "العظمة لله" و"صحائف قريش"، وترك مخطوطات كثيرة بعضها فقد.

حينما بلغت حدة الصراع بين الكواكبي والسلطة العثمانية بحلب ذروتها وبدأت المكائد ضده، قرر الهجرة إلى مصر ووصلها عام ١٨٩٩م. وبينما عبد الرحمن الكواكبي في أوج عطائه وشدة تأثيره في الناس، ينبههم إلى سوء أحوالهم ويحرضهم على الثورة ضد الأتراك لأجل التقدم، تم دس السم في طعامه فكانت وفاته في سنة ١٩٠٢م. رثاه كبار رجال الفكر والشعر والأدب في سورية ومصر، ونقش على قبره بيتان لشاعر النيل حافظ إبراهيم:

هنا رجل الدنيا ، هنا مهبط التقى هنا خير مظلوم هنا خير كاتبِ
قفوا وأقرأوا (أم الكتاب) وسلموا عليه ، فهذا القبر قبر الكواكبي

من أقوال الكواكبي: "إن الهرب من الموت موت!.. وطلب الموت حياة!.. والخوف من التعب تعب!.. والإقدام على التعب راحة!.. والحرية هي شجرة الخلد، وسقياها قطرات الدم المسفوح.. والإسارة (العبودية) هي شجرة الزقوم، وسقياها أنهر من الدم الأبيض، أي الدموع!". رحم الله الكواكبي

▪ نجيب عازوي

المفكر السياسي القومي العربي، نجيب عازوري من مواليد بلدة عازور القريبة من جزين بجنوب لبنان، ولد في تاريخ غير معروف على وجه الدقة، والأرجح أنه وُلد في سنة ١٨٧٠م. التحق نجيب بمدرسة الغرير في بيروت، وتخرج في معهد الدراسات العليا في باريس. شغل منصب مساعد حاكم القدس (١٨٩٨ – ١٩٠٤م) ثم اعتزل المنصب ليتفرغ للعمل السياسي. جاهر بالدعوة إلى استقلال سورية وفصلها عن الدولة العثمانية وحينما حكم عليه بالإعدام من قبل تركيا نزح إلى

مصر ومنها إلى باريس. كان هدفه المعلن تحرير الشام والعراق من السيطرة التركية.

في عام ١٩٠٥ نشر كتاب (يقظة الأمة العربية) باللغة الفرنسية قبل أن يترجم لاحقًا إلى اللغة العربية، وأصدر بالاشتراك مع الكتاب الفرنسيين مجلة (الاستقلال العربي) صدر العدد الأول منها في ابريل سنة ١٩٠٧ وتوقفت بعد إعلان دستور سنة ١٩٠٨م. يقول ساطع الحصري: "إن القومية العربية ابتدأت بنجيب عازوري الذي يضع آماله العربية السورية في فرنسا أولاً وفي انجلترا ثانيا ". لقد كانت أعمال نجيب عازوري تمهيدا لمؤتمر باريس سنة ١٩١٣م.

وقد شاعت فكرة انفصال العرب عن الدولة العثمانية لأسباب قومية عربية خلال الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧، لأن هزيمة الدولة العثمانية في هذه الحرب والاضطراب الذي دب في أوصال الدولة جراء ذلك أديا إلى ظهور الفكرة، فضلاً عن أفكار الإصلاح التي نشرها مدحت باشا في تركيا. وكان بعض اللبنانيين والسوريين سباقين إلى التحذير من مخاطر الانحطاط العثماني الذي ظهر واضحًا في هزيمة الجيش أمام روسيا حيث بادر يوسف بك كرم الذي خشي من أن تنجح فرنسا وإنجلترا في تجزئة بلاد العرب، إلى الاتصال بالأمير عبد القادر الجزائري في دمشق ودعاه إلى توحيد الجهد في سبيل إقامة إمارة عربية مستقلة يقودها الجزائري. وقد اشتُهرت في تلك الفترة، وبالتحديد في سنة ١٨٦٨، قصيدة إبراهيم اليازجي التي يقول في مطلعها :

تنبّهوا واستفيقوا أيها العربُ فقد طمى الخطبُ حتى غاصت الركبُ

وفي سنة ١٨٧٨م عقدت حركة الأعيان السوريين مؤتمرا في دمشق، وفي منزل حسن تقي الدين الحصني بالتحديد، واتفق المجتمعون على استقلال البلاد الشامية واختيار الأمير عبد القادرالجزائري أميرًا على سورية.. وكان قائد هذا التحرك أحمد الصلح.

كان للمفكر المناضل "نجيب عازوري" دور كبير في تأسيس حزب قومي عربي في باريس أسماه "حزب جامعة الوطن العربي" سنة ١٩٠٤م ، هذا بالإضافة إلى أنه كان الرجل الأساسي في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس عام ١٩٠٥م. وفي عام ١٩٠٨م، وعلى أثر سقوط السلطان عبد الحميد، قرر نجيب عازوري العودة إلى فلسطين للترشّح في الانتخابات. وبعد هروبه من حكم الإعدام الذي أصدرته تركيا ضده ونزوحه إلى مصر، أصدر في القاهرة جريدة يومية اسمها "مصر".

هذا، وقد لعب نجيب عازوري دورًا كبيرًا في تأمين السلاح للثوار العرب من الدول الكبرى خلال الحرب العالمية الأولى حيث قام بتهريبه وإيصاله للثوار، وكان يعد نفسه للانتقال إلى سورية لكي يشارك في القتال، لكن الموت عاجله في يونيو سنة ١٩١٦م.

يُعد عازوري أحد أوائل الذين نبّهوا، بقوة، إلى المخاطر المتوقعة من صعود الحركة الصهيونية. وللأسف الشديد فإن كتابه "الخطر اليهودي العالمي" لم يصلنا البتة، ولم يُعثر على أي نسخة منه أو حتى على نصوص متفرقة في بطون الكتب الأخرى؛ فقد ضاع واندثر تمامًا، أو أنه على الأرجح لم يكتب البتة كما ذكر "موقع نادي الفكر العربي".

وعلى كل حال، لم يصلنا من مواقف عازوري في الصهيونية إلا بعض النصوص المتناثرة في كتابه "يقظة الأمة العربية". هذا، ولا ريب في أن نجيب عازوري يعتبر واحدًا من الذين تحدثوا مبكرًا عن خطر الصهيونية على فلسطين والبلدان المحيطة بها. وهو، إلى جانب "نجيب نصار"، ثم "خليل السكاكيني" و"أحمد سامح الخالدي" و"إبراهيم متري الرحباني"، يُعد أحد أوائل الذين نبّهوا، بقوة إلى المخاطر المتوقعة من صعود الحركة الصهيونية.

اختلفت الروايات التي صدرت عن نجيب عازوري عن اليهود والصهيونية وعدد اليهود في فلسطين ولو انه كان من المهتمين مبكرا بالخطر الصهيوني ربما

لمعرفته بمعظم اللغات الأوروبية ولعمله مساعد حاكم لمدينة القدس. لكن عازوري كان من دعاة قيام أمة عربية في الجزء الآسيوي من بلاد العرب فقط. وعلى أهمية هذه الفكرة في ذلك الزمان، إلا أن ثمة نهجا شديد الخطر لدى نجيب عازوري يتمثل في أن قيام كيان عربي مرهون، بحسب تصوره، بفكرة الحماية الأجنبية، وهي هنا تعني الحماية الفرنسية. فنجيب عازوري كان يؤيد، بقوة، نظام الحماية الفرنسي في المشرق، وطالما دافع عنه بلا كلل، ووصفه بأنه عمل خيري يقوم على ثلاث ركائز (باسل ديوب – الحوار المتمدن):

١- يحمي المرسلين الفرنسيين.
٢- يحمي الكنائس الكاثوليكية الوطنية.
٣- يحمي المرسلين الكاثوليك الآخرين كالألمان والإيطاليين والإنجليز.

كان يعتقد عازوري أن فرنسا رسول نشط ومتحمس للفكر الحر، وهي مشعل الحضارة والحرية الأسطع إشعاعًا إلى جانب كونها حامية المقهورين. أما إنجلترا فهي المنافسة الشريفة لفرنسا، المأوى السخي للفكر والقيم الإنسانية، ولو عاش عازوري سنة واحدة فقط، أي إلى سنة ١٩١٧، لظهرت له اتفاقية "سايكس بيكو" التي بموجبها تم تمزيق الوطن العربي، ولخاب أمله في سياسة هاتين الدولتين خصوصًا فرنسا التي طالما وصفها بأنها أمة الفروسية، وهي التي بادرت إلى الحملات الصليبية، وغزت الجزائر من أجل إقامة مستعمرة إنتاجية.

مهما كانت الأقوال في نجيب عازوري، يظل بلا شك هو العربي المتعلم الذي انفتح على ثقافة أوروبية حديثة أثارته ضد الاستبداد وعلّمته أن الرابطة القومية ضرورة لنهوض العرب ووحدتهم، وهو الذي اتكأ على وعي عقلاني وأدرك أن الهجرة اليهودية إلى فلسطين مشروع سياسي، واضح الأهداف، يجب التعامل معه بجدية، بعيدة عن القياسات المتخلّفة والبلاغة المأثورة الجوفاء.

وضع نجيب عازوري مؤلفات كثيرة لم يصلنا منها سوى كتاب "يقظة الأمة العربية". وفي جميع كتاباته كان يركز على ضرورة وعي العرب لقوميتهم وعلى

ضرورة فصل الدين عن الدولة بإقامة خليفة لكل المسلمين من سلالة النبي على نمط بابا روما المسيحي، وهو أيضًا يدعو إلى اللامركزية واحترام الحكم الذاتي في الإمارات العربية المستقلة مثل اليمن. وكان رأى عازوري آنذاك "أن تحولاً كبيرًا وهادئًا على وشك الحدوث في تركيا"، وهو يقصد وعي العرب لتجانسيتهم القومية التاريخية والعنصرية ورغبتهم في الانفصال عن الدولة العثمانية وإقامة دول مستقلة. رأى أنها ستمتد ضمن حدودها الطبيعية من وادي دجلة والفرات حتى قناة السويس ومن البحر الأبيض المتوسط إلى بحر عمان.

▪ ساطع الحصري

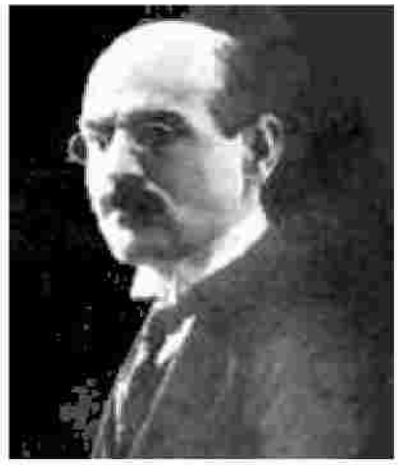

هو "ساطع بن محمد هلال بن مصطفى الحصري" من مواليد مدينة صنعاء اليمنية سنة ١٨٨٠م لوالدين حلبيين. والده محمد هلال الحصري من أهالي مدينة حلب في شمالي سورية، نال والده محمد هلال الحصري الإجازة في علوم الشريعة واللغة العربية من الجامع الأزهر بمصر، عمل قاضيًا في مدينة دير الزور ثم في مدينة حلب السوريتين، وعين رئيسًا لمحكمة الاستئناف في ولاية اليمن، ثم انتقل إلى

تركيا فعمل في عدة مناطق، ثم إلى طرابلس بليبيا، وعاد إلى اليمن ثم إلى تركيا ثانية ثم إلى طرابلس بليبيا.
وحينما انتقلت وظيفة القاضي محمد هلال الحصري (الوالد) إلى طرابلس الغرب للمرة الثانية سنة ١٨٩٣م، كان ساطع الحصري قد أتم الدراسة الابتدائية النظامية، واستطاع بجهده الشخصي دخول القسم الإعدادي في المدرسة الملكية باسطنبول بتركيا حيث تركته الأسرة المغادرة إلى ليبيا تلميذًا في تلك المدرسة الداخلية.

كان ساطع الحصري محبًا للإطلاع والدراسة والتحصيل ولم يكتف بالمحاضرات التي كانت تدرس.. كان شديد الرغبة بالمعرفة مولعا بالعلوم الرياضية، وقرأ كثيرًا من الكتب في شتى مجالات العلم. من شدة تفوقه وقدرته على حل المسائل الرياضية الصعبة أطلق عليه زملاؤه لقب (أرشميدس) وتخرج بتفوق في المدرسة الملكية سنة ١٩٠٠م.

صار لساطع الحصري شأن في الدولة العثمانية بما قام به من تبديل في نظم التربية والتعليم، وبما نشره من مؤلفات ومقالات مفيدة، وأصبح يتمتع بمركز مرموق. فقد انتخب عضوًا في (جمعية المطبوعات العثمانية) منذ يوم تأسيسها، وكان رئيسًا لمؤتمر المطبوعات، وتعتبر هذه الوظيفة من آخر المراكز التي تبوأها ساطع الحصري في العهد العثماني حتى نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م.

وأما في إطار الدولة العثمانية، فقد كان ساطع الحصري منخرطًا في سلك (الاتحاد والترقي)، وهو الحزب التركي الطوراني الذي حمل راية التتريك ضد العرب. كانت نزعته في ذلك الوقت طورانية تركية بحتة، دعا إلى الطورانية والتتريك وعمل مع جمعية الاتحاد والترقي، ثم انقلب بين عشية وضحاها ليصبح رائدًا من رواد حركة القومية العربية وكانت في لغته رطانة فلم يكن نطقه سليما. شغل عدة مناصب في بلاط السلطان عبد الحميد الثاني ورحل إلى دمشق عام ١٩١٩م.

حينما أعلن استقلال سورية على إثر الحرب العالمية الأولى، دعته الحكومة العربية السورية التي تشكلت بعد الانفصال عن الدولة العثمانية، وكلفته بوظيفة مفتش عام للمعارف ثم مدير عام للمعارف في سورية، وبعد تتويج "فيصل بن الحسين" ملكًا على سورية بتاريخ ٨ آذار ١٩٢٠م، وقيام أول حكومة عربية دستورية، أختير الحصري لكي يتولى في دمشق منصب وزير التعليم وعمل على وضع مناهج التعليم العربية. أصدر ساطع الحصري مجلة باسم (التربية والتعليم) نشر فيها عدة مقالات تربوية ووطنية. وحينما تم خلع الملك فيصل الأول من على عرش سورية سنة ١٩٢٠م. وولي ملكًا على العراق صحبه ساطع الحصري إلى بغداد.. زار معه العواصم مستشارا، واطلع على الأوضاع التربوية والتعليمية في مصر وعلى ذلك عمل مستشارًا لشؤون المعارف في بغداد حيث تسلم طيلة ما يقارب العشرين عامًا عدة مناصب تربوية فيها.

بعد جلاء الفرنسيين سنة ١٩٤٥ دعته سورية وكلفته بمهمة الإشراف على إعادة تنظيم المعارف، فعينته مستشارًا فنيًا لشؤون التربية والتعليم. وبعد فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق قام الإنجليز بنفي ساطع الحصري إلى حلب فتسلل منها إلى بيروت ثم عاد بعد فترة إلى دمشق.

ألف ساطع الحصري أكثر من خمسين كتابًا، معظمها في التنظير لفكرة القومية العربية (اتسعت إلى أكثر من عشرين مؤلفا) ؛ حتى سمي " فيلسوف القومية العربية "، وقد صدرت مجموعة أعماله الكاملة في ثلاث مجلدات عن مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت عام ١٩٨٥م من أهمها:

- حول القومية العربية.
- آراء وأحاديث القومية العربية ١٩٤٤.
- آراء وأحاديث القومية العربية ١٩٥١.
- دفاع عن العروبة.
- محاضرات في نشوء الفكرة القومية.
- العروبة بين دعاتها ومعارضيها.

- يوم ميسلون.
- العروبة أولا.

عمل ساطع الحصري أيضًا في مصر فكلّف ليشغل منصب المستشار الفني للإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ثم استلم إدارة معهد الدراسات العربية العالية الذي قررت جامعة الدول العربية بمساعيه افتتاحه في القاهرة، كما عُين فيه أستاذًا للقومية العربية، إلا أنه لم يستطع تطبيق جميع ما يعتقد به من آراء، فاستقال وتفرغ للبحث والتأليف.

هذا، وظل ساطع الحصري مصرًا على قناعته بالنظرية الغربية عن تشكيل الأمة، وذلك باعتبار أن اللغة والتاريخ المشترك هما المكونان الأساسيان للأمة. كان الحصري يعتبر الدين (الإسلام) عنصرًا ثانويًا مكملاً بقصد تفتيت الرابطة الإسلامية التي كانت تقوم عليها الدولة العثمانية. ورغم أن ساطع الحصري قد نادى في كل دراساته بدولة قومية علمانية إلا أنه كان يؤكد أن علمانيته لا تعني (اللادينية) كما كان يفهمها كثير من رفاقه، وكان يؤكد دائمًا على أن الدين بعد شخصي في حياة الفرد مرددًا بذلك الموقف العلماني الغربي الذي يفتي بأن العلاقة بين الإنسان والدين علوية فلتبق كذلك ما دامت لا تتدخل في شؤون أي فرد آخر.

لم ينكر الحصري بأن الإسلام كما يراه هو حركة تجديدية عربية كان لها دورها في صنع تاريخ الأمة العربية، لكنه يرى أن قراءة التاريخ بأعين معاصرة تؤكد أن دور الإسلام في العصر الحديث قد غدا ثانويًا أو هامشيًا. حاول الحصري مثل الكثير من دعاة القومية العربية أن يعيد الاعتبار إلى المرحلة الجاهلية العربية باعتبارها تمثل المهد الذي نشأت فيه الدعوة الإسلامية حيث يغمز بعض القوميين في قناة أن الدعوة الإسلامية هي وليدة البيئة العربية الجاهلية بكل معطياتها الجمالية والسيئة.

ويُعتبر ساطع الحصري أحد الرواد الأوائل للفكر القومي العربي، وبسبب عصبيته المسبقة ضد الإسلام وجهده المتكرر ينسب إليه أنه ساهم كثيرًا في صنع الفجوة بين مكونات الأمة الأساسية (الدين) و(القومية) وكان لهذه الفجوة أثرها في بعثرة

جهود الأمة وتحدي قواها ببعضها وما زال هذا على أشده في الزمن الحالي (الآن ٢٠١١م). هذا، والحصري من الآباء الروحيين لكثير من الأحزاب والحركات القومية فكانت وزارات المعارف والمجامع العربية تفتح له أبوابها من قطر إلى قطر ومحفل إلى محفل (سورية، العراق، مصر، لبنان، الجامعة العربية)، لكن كل هذه التسهيلات لم تكن ترتبط بكفاءة الرجل فقط وإنما كانت ترتبط برفضه لدولة الخلافة العثمانية وللوحدة الإسلامية.

الأستاذ "محمد فاروق الخالدي" قال عن الحصري، إنه كان من أبرز دعاة الفكر القومي العلماني الحديث ، والقوميون العرب يعتبرون الحصري فيلسوف القومية العربية. ويضيف الخالدي، لقد كان الحصري هو العقل المفكر لفتنة القومية التي لم يأت منها إلا أننا كنا أمة واحدة هي "أمة محمد صلى الله عليه وسلم" فصرنا جمعية أمم ، وكنا إخوة يجمعنا الحب في ظلال الإيمان ، فصرنا أعداء تفرقنا هذه الدعوة الجاهلية. وقول الأستاذ الخالدي هنا غير دقيق لأنه تجاهل النفوذ الأجنبي وأثره في تقسيم الوطن العربي، فلو لم يحتل الأوروبيون الوطن العربي هل كان فكر ساطع الحصري يجزئ الوطن العربي كما نراه اليوم؟

هذا، ويأخذ منتقدو فكرة ساطع الحصري القومية العربية عليه، أنه كان يستمد نظريته القومية من النظرية الألمانية التي على أساسها تم توحيد ألمانيا، تلك النظرية التي تقول باللغة والتاريخ ، التي كان من أستاذاها اليهوديين الألمانيين، "ماكس مولو" و"ماكس نوردو" ، وهما فيلسوفان يهوديان، كان الأخير من الزعماء الصهاينة الذين ترأسوا الحركة الصهيونية العالمية بعد موت "تيدور هرتزل". ومن الجدير بالذكر أن الفكر القومي الصهيوني نشط ووصل أعلى مستوى في القرن التاسع عشر بانعقاد المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م برئاسة تيدور هرتزل أي أن الفكر القومي العربي الحديث أستدعيَ في مدة قريبة من المدة التي انعقد فيها المؤتمر الصهيوني الأول.

كان الحصرى يرى أن الرابطة القومية أقوى وأعم من الرابطة الإسلامية، وأن الدين طارئ على الأمة العربية، كان همه بعث أمجاد العرب قبل الإسلام، وكان يرى

عدم إقحام الدين في السياسة ودعا إلى علمانية متطرفة لأجل النهوض بالأمة العربية. وعمم الحصري فكره خلال عمله في العراق وسورية والجامعة العربية. لهذا يعتبر فكر ساطع الحصري مرجعًا أساسيًا لدى القوميين العرب في الوقت الحالي، وتعتبر الحركات القومية الحديثة استمرارًا لهذا الفكر.

ظل الحصري يعتبر أن الوحدة الإسلامية مستحيلة التحقيق، لأنها تضم قوميات مختلفة. مجلة الرسالة العدد ٣١٥ . عن الأستاذ "شاكر اليساوي" قال عن الحصري واصفًا: في إحدى حفلات تكريم الحصري: "مرحبًا بالمناضل الكبير في خدمة العروبة والإسلام ". قاطع الحصري المتحدث قائلا: "عرب نعم .. إسلام لا .. أنا لا.."! أي أنه علماني أو لاديني.

(شخصيات اختلف فيها الرأي ؛ لأنور الجندي ، ص٧٤)

قيل بأن ساطع الحصري سافر إلى مصر في خمسينات القرن العشرين فنزل مطار القاهرة، وكان وقتها في السبعينات من عمره. رفض أن يقدم جواز سفره لضباط الجوازات في مطار القاهرة، مصرًا على دخول مصر بدون إبراز جواز سفر، لأنه عربي يتحرك بين أقطار وطن واحد، وبالتالي ليس من المفترض أن يحتاج لجواز سفر، ولو كان الأمر يتعلق بإثبات شخصيته فيمكنهم سؤاله عن البطاقة الشخصية وليس عن الجواز. حدثت على أثر ذلك مشكلة.. لما علم بها جمال عبد الناصر، أوعز لمسؤولي المطار بالسماح لدخول الأستاذ ساطع الحصري دون جواز سفر. وبذلك أصبحت سابقة لدخول شخص عربي الحدود المصطنعة دون جواز سفر.

يرى ساطع الحصري أن أهم العناصر التي تكون القومية وتؤلف الأمة ليست وحدة الأصل والمنشأ، لأن هذا الظن لا يستند إلى أساس صحيح، جميع الأبحاث العلمية – المستمدة من حقائق التاريخ ومن مكتشفات علم الإنسان وعلم الأقوام تؤكد أنه لا يوجد على وجه البسيطة أمة تنحدر من أصل واحدٍ فعلاً، ولا توجد على الأرض أمة خالصة الدم تمامًا.. جميع الأمم التي نعرفها الآن تكونت من تداخل عشرات الأعراق والأجناس، في مختلف أطوار التاريخ. لا توجد أمة أبناؤها من نسل واحد إنما تكونت من تداخل وتمازج عشرات الأقوام. في محاضرة ألقاها ساطع الحصري

في نادي المعلمين ببغداد سنة ١٩٢٨م، شبه الأمة بالأنهر العظيمة، فقال ما معناه، إن من المعلوم أن المياه التي تجري في النهر الكبير تأتي من منابع صغيرة متعددة، فحينما نتحدث عن منبع نهر من الأنهار فإننا نعني المنبع الرئيسي الغالب لأنه الأساسي ونحن بذلك لا نقصد أن جميع مياه النهر تأتي من منبع واحد فعلا. كذلك هي الأمم، فنهر دجلة مثلاً.. من يجزم أن مياهه ليست آتية من أماكن مختلفة، قد تنبع من تحت التراب أو من بين الصخور أو من ذوبان الثلوج، وقد تكون من سقوط الأمطار أو غيرها لكننا نسمي هذه المياه باسم نهر دجلة. وكذلك تتكون الأمم من أعراق وأجناس كثيرة. المهم في القرابة والنسب ليس رابطة الدم في حد ذاتها بل هو الاعتقاد بها والنشوء عليها.

ويتحدث الحصري في المحاضرة عن القرابة في الأمم، فيقول إنها نفسانية ومعنوية أكثر مما تكون جسمانية ومادية. ويقول الحصري إن العوامل التي تؤدي إلى تكوين القرابة المعنوية التي يشعر بها الأفراد في الأمم المختلفة، هي اللغة والتاريخ، فإن الاعتقاد بوحدة الأصل إنما يكون في الدرجة الأولى من الوحدة في اللغة والاشتراك في التاريخ. ومن وجهة نظر الحصري إن اللغة هي روح الأمة وحياتها، إنها بمثابة محور القومية وعمودها الفقري. كما أن الأمة التي تنسى تاريخها تكون قد فقدت شعورها، وأصبحت في حالة من السبات، وإن لم تفقد الحياة. هذا، ويرى الحصري أن من أهم العوامل الثانوية التي تؤثر في تكوين الأمة الدين فالدين يوجد نوعًا من الوحدة بين الذين ينتمون إليه، ولهذا له أثر في سياسة الأمة وتاريخها. كما ان أثر الدين يختلف حسب العصر والدور وباختلاف الدين. لهذا يقول الحصري إن الأديان تنقسم إلى قسمين، أديان قومية، وأديان عالمية. هناك أديان لقوم أو لمدينة أو قطر معين أصحابها لا يريدون تصديرها لأنها خاصة، مثل تلك الأديان هي أديان قومية. هناك أديان عالمية كالإسلام والمسيحية فهي للناس كافة.. من هنا كان رفض "الحصري" اعتبار الدين الإسلامي عنصرا هاما في تشكيل الأمة العربية أو أحد ركائز القومية العربية. وقدم الحصري حجة على ما قال، مبرهنا بأن المسيحية مثلاً حاولت أن تشمل العالم بأجمعه، لكنها لم تمنع تفرق

المسيحيين إلى دول، ربما هو يقصد قيام الحروب الطاحنة بينهم، التي كان أكثرها دموية الحربين العالميتين. والشيء نفسه بالنسبة للإسلام.. فهو يرى أن الدعوة المحمدية سعت إلى جمع الأنام فهي للبشر كافة تحت راية القران لكن التاريخ يثبت بأن المسلمين كثيرًا ما اختلفوا وتحاربوا أيضًا، وإن انتشار الإسلام لم يحل دون تفرق المسلمين إلى أمم ودول. كما أن الأديان العالمية كالمسيحية والإسلام لم تستطع أن توحد القوميات وهي في أوج تجلياتها، ولم تستطع المحافظة على كياناتها بسبب تجذر المذاهب المختلفة.

هذا، ويرى ساطع الحصري أن الأمر ينسحب أيضًا على التاريخ من ناحية "وحدة التاريخ" فيقول، يجب ألا نفهم من ذلك "الوحدة التامة في جميع أدوار التاريخ" وهو يقصد أبناء الأمة. بل يجب أن نفهم من ذلك "الوحدة النسبية والغالبة التي تتجلى في أهم صفحات التاريخ". إن أهم صفحات التاريخ في نظره هي التي أوجدت ثقافة الأمة الأساسية، وأعطتها لغتها الحالية، وطبعتها بطابعها الخاص، وإلا لما استطعنا أن نجد أمة واحدة، كانت "موحدة" على طول تاريخها توحيدًا تامًا. لهذا قال أحد المفكرين، "إن على كل أمة أن تنسى قسمًا من تاريخها" لأجل أن تتوحد.

وبمناسبة قصة تأثير الدين في تكوين القوميات، قال الحصري، يجب ألا ينظر إلى العلاقة بين المسيحيين العرب والمسلمين العرب بمنظار متوارَث من عهود الحروب الصليبية. فالحروب الصليبية حدثت في عهد كان فيه الوعي القومي مفقودًا في كل البلدان، وكان فيه الدين مسيطرًا على كل شيء في جميع أنحاء العالم، والحياة الآن مختلفة عن الحياة في ذلك الزمن من النواحي كافة.

تلك كانت دراسة مختصرة عن إحدى الشخصيات الشهيرة المؤثرة في التاريخ العربي القومي الحديث. لم يتوقف دور ساطع الحصري عند بلد عربي واحد اهتم به، بل تعدى تأثيره في مختلف المجالات السياسية والفكرية والتربوية إلى البلاد العربية الأخرى، وقد رأينا كيف عمل جاهدًا في المحطات العربية الرئيسية في زمنه (دمشق – بغداد – القاهرة – بيروت)، فهو مفكر موسوعي، وصاحب

المؤلفات في الفكر القومي العربي، واعتُبرَ فيلسوف العروبة عام ١٩٤١م. لذلك فالرجل يستحق أكثر مما عرضنا هنا للتعرف على فكره ومناقشة دوره في إبراز الفكر القومي العربي.

عاد الحصري إلى العراق عام ١٩٦٥م بعد أن أعيدت إليه الجنسية العراقية، وظل فيه حتى وفاته عام ١٩٦٨م.

▪ الشيخ محمد عبده

ظهر الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥م) في زمن كان يُطبق فيه الجهل والتخلف على المجتمع العربي المسلم في مصر. فقد أنار الإمام المجدد والوطني الثائر محمد عبده كرائد عظيم للإصلاح الديني والاجتماعي، (أنار) طريق أمته نحو استعادة المجد الضائع للحضارة الإسلامية، فرفع راية الجهاد ضد مظاهر التخلف، ودعا الشباب إلى نبذ أسباب الجمود والتوقف، ومضى يناهض سطوة الحكام الإنجليز، ويزيل ظلام الغشاوة من عيون الناس. أدرك محمد عبده ببصيرته النافذة أنه لا يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فالدين هو أساس الإصلاح في كل زمان ومكان، فشرع في تطوير الأزهر، فكان طريقه مليئًا بالأشواك، مرصوفًا

بالوعورة، وهو الذي وصفه مستشرق أمريكي، فقال: "كان محمد عبده فلاحًا صميمًا، وليد تربة مصر العريقة، قبل أن يغدو فقيهًا وإمامًا للمسلمين، وإننا لنلمح في إخلاصه لبلده وفي دعوته إلى الوطنية، مزاجا عجيبا من الوفاء للماضي المجيد، والاستمساك بيقين الدين".

لقد كانت شخصية الإمام محمد عبده منفتحة على العالم، وهذا ما جعل البعض يقولون"، من هذا الإمام الذي يتكلم بالفرنسية، ويسيح في بلاد الإفرنج، ويترجم مؤلفاتهم، وينقل عن فلاسفتهم، ويباحث علماءهم، ويفتي بما لم يقل به أحد من المتقدمين". كان محمد عبده ينشر دعوة " العروة الوثقى" في العالم الإسلامي كله، ويشتغل بالقضاء في المحاكم ويعلم في الأزهر، ويصدر الفتاوى المستنيرة، ويشترك في جلسات مجلس" شورى القوانين" وفي مجلس الأوقاف الأعلى، ويؤلف الرسائل الدينية، وينشر المقالات السياسية والفلسفية، ويفسر القرآن من خلال رؤيته الثاقبة التي ترى أن إصلاح الأمة لا يكون إلا بإصلاح عقول وقلوب أبنائها.

ولد الشيخ "محمد بن عبده بن حسن خير الله" سنة ١٨٤٩ في قرية " محلة نصر" في محافظة البحيرة، لأسرة متوسطة الحال تعمل في الزراعة، أدخله أبوه مدرسة القرية ليحفظ القرآن، وجاوز العاشرة من عمره وأتم حفظ القرآن الكريم وذهب إلى "الجامع الأحمدي" في طنطا، ليتم تجويد القرآن ودراسة قواعد اللغة العربية. ثم انتقل إلى الدراسة في الجامع الأزهر عام ١٨٦٦م وحصل منه على شهادة العالمية عام ١٨٧٧م، وأصبح من حقه التدريس في الأزهر، فراح يلقي دروسا في التوحيد والمنطق والأخلاق إلى أن عين مدرسا في التاريخ الإسلامي في مدرسة دار العلوم.

واجهت الإمام الثائر خلال دراسته الأزهرية ظروف نفسية جعلته ينقطع عن الدرس والتحصيل ويحاول اعتزال العالم وأخذ يمارس ضروب الزهد والخلوة مع النفس، إلى أن وفد إلى مصر عام ١٨٧١ الإمام الداعية جمال الدين الأفغاني، الذي كانت شهرته قد سبقته كداعية للتحرر من الاستعمار الأجنبي ووحدة الأمة الإسلامية فأصبح محمد عبده من أقرب تلاميذه، ولما صدر قرار إبعاد جمال الدين الأفغاني

عن مصر للمرة الأولى قال يوم وداعه لبعض محبيه " لقد تركت لكم محمد عبده وكفى به لمصر عالمًا".

وبعد أن تم القضاء على ثورة الجيش التي قادها "أحمد عرابي" سنة ١٩١٩م في مصر بسبب تدخل الإنجليز، وجهت إلى الإمام محمد عبده تهمة التآمر مع الثورة فحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر، ثم بالنفي ثلاث سنوات لأنه أفتى بعزل الخديوي توفيق، فأختار الإقامة في سورية ورحل إليها عام ١٨٨٣ م، وقد عمل فيها وأفاد كثيرا، وبعد فترة سافر إلى باريس والتقى جمال الدين الأفغاني ثم عاد إلى بيروت ليعمل في المدرسة السلطانية. ويبدو أن نشاط الشيخ في بيروت لم يكن على هوى الخلافة العثمانية فسعى " السلطان عبد الحميد" لدى الحكومة البريطانية إلى إصدار العفو عن الإمام محمد عبده ليعود إلى وطنه مصر، وعاد الإمام محمد عبده إلى مصر عام ١٨٨٨م حيث عين قاضيا في المحاكم الشرعية وشغل مراكز أخرى.

كان من أشهر الفتاوى التي أثارت عليه سخط الشيوخ المتزمتين في مصر وجلبت عليه ضروبًا من القدح والتشهير، إباحته للمسلمين أن يأكلوا من ذبائح غير المسلمين عند الضرورة القصوى، وأفتى بالسماح للمسلمين أن يتزينوا بزي غير زيهم التقليدي تيسيرًا لهم في أمور معاشهم، كما أصدر فتواه التي أعتبرت تجديدًا مهما في الفقه وهي الفتوى الخاصة بصحة " نظام التوفير في البريد بالأرباح"، وصحة نظام التأمين وهو ما ساعد على تأسيس النهضة الأولى للاقتصاد المصري عن طريق الادخار الاجتماعي واستثمار المدخرات لمصلحة المجتمع.

يُعتبر الإمام محمد عبده واحدًا من أبرز المجددين في الفقه الإسلامي في العصر الحديث، وأحد دعاة الإصلاح وأعلام النهضة العربية الإسلامية الحديثة، فقد ساهم بعلمه واجتهاده في تحرير العقل العربي من الجمود الذي لازمه لعدة قرون، كما شارك الإمام المجدد محمد عبده في إيقاظ وعي الأمة نحو التحرر، وعمل على إحياء الاجتهاد الفقهي لمواكبة التطورات السريعة في العلم، ومسايرة حركة المجتمع وتطوره في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية.

هذا، ولقد بدا واضحًا دعم الإمام محمد عبده للاتجاه العروبي الذي يمكن أن يعمل في إطار إسلامي أشمل، ولا يتناقض معه، فتنور الكثيرون وازداد الوعي بين العامة وساهم في نشر الفكر القومي العربي الذي طغى بسبب العرب القوميين التغريبيين أمثال، نجيب عازوري، وساطع الحصري، وميشيل عفلق، وقسطنطين زريق، وشبلي العيسمي، وجورج حبش، وغيرهم من منظري القومية الذين تألقوا في دعواهم القومية.

ولهذا يقول منتقدو محمد عبده: إنه كان صديقًا حميمًا لـ"كرومر" (المندوب السامي البريطاني في مصر) وأن كرومر صرح بأن الشيخ محمد عبده سيبقى مفتيا لمصر مادامت بريطانيا فيها. وقالوا عن محمد عبده أيضًا إنه كان ماسونيًا ومن رواد صالون الأميرة نازلي فاضل، ومن تلاميذه: أحمد لطفي السيد العلماني الذي أعلن كفره الصريح في صحيفته (الجريدة) وسعد زغلول. وقاسم أمين (صاحب كتاب تحرير المرأة) وهؤلاء كان لهم أثر عميق في مجرى الأحداث في مصر.

قال الشيخ مصطفى صبري في محمد عبده: "فلعل الشيخ محمد عبده وصديقه أو شيخه جمال الدين الأفغاني أرادا أن يلعبا في الإسلام دور "مارتن لوثر" ودور "كلفن" زعيمي البروتستانت في المسيحية فلم يتسن لهما الأمر بتأسيس دين حديث للمسلمين، وإنما اقتصر سعيهما على مساعدة الإلحاد المقنع بالنهوض والتجديد". ويقول أيضًا الشيخ مصطفى صبري، "أما النهضة الإصلاحية المنسوبة إلى محمد عبده فخلاصتها أنه زعزع الأزهر من جموده على الدين فقرب كثيرًا من الأزهريين إلى اللادينيين خطوات ولم يقرب اللادينيين إلى الدين خطوة".

يقول الأستاذ "باسل ديوب عن الشيخ محمد عبده " نقلا عن احتفال المفكرين بمناسبة مرور مائة عام على رحيل الشيخ محمد عبده، أنه قال على لسان منصفي محمد عبده ومنهم الدكتور زعتري: أن خصوصية إصلاح محمد عبده متأتية من بعدين، هما الأصالة والشمولية، فهو تفاعل مع مستجدات عصره ولكن من دون التخلي عن روحانيته وما في ذاتيته الحضارية من أصالة.

الأصالة والشمولية عند محمد عبده انطلقت أساسًا من جوهر واحد من عقيدة دينية راسخة عمادها الوحي الإلهي. وأما الباحث الفرنسي "طبيير جان لويزار" فقال، كان الإصلاح عند محمد عبده يبدأ من الانطلاق من تمكين الإسلام من مواجهة تحدي الحداثة الغربية الغازية، فاعتقد أن التربية وإعداد الأذهان للإصلاح هو أفضل مقاربة، مركزًا على اعتماده التربية والتعليم مدخلاً أساسيًا للإصلاح بعد فشل تجربته السياسية بإخفاق حركة أحمد عرابي، وتحسين اللغة العربية، وإصلاح الأزهر، والحد من بيروقراطية رجاله. وقال الدكتور البرقاوي في مناسبة مرور المائة عام، وقف محمد عبده ضد الغرب لكن ليس بالمطلق، هو ضد استبداد الغرب في علاقته، وهو بهذا الشكل مع التقدم والديمقراطية. قدم الإمام مشروع دستور للدولة المصرية لتنظيم السلطات، وفصلها، وبهذا فهو يقدم اقتراحًا لدولة مدنية لا سلطة دينية، وهو بذلك مؤسس فكرة العلمانية العربية في العصر الحديث.

وفي الساعة الخامسة من مساء يوم ١١ يوليو عام ١٩٠٥م توفي الإمام المجدد محمد عبده بالإسكندرية بعد معاناة مرض السرطان عن سبع وخمسين سنة ودفن بالقاهرة، ورثاه العديد من الشعراء.

▪ محمد رشيد رضا

سيرة هذا المصلح الكبير من السير التي تثير الوجدان فقد شدني برغبة أن أعرف عن هذا الشيخ، لأنه شخصية غير عادية.. مفكر وفيلسوف.. عصفت الدنيا به فوصل إلى الطريق. حارب البدع ونشد الحق وارتقى في سلم العصرنة بلا تعدٍ. سافر إلى العلم وعرف آفاق المعرفة وقدم الدليل، وتبنى جيلاً من المثقفين. لا يكاد المرء أن يقرأ لهذا الشيخ، ويتعرف على سيرته، ويمضي ليكتب عنه حتى يجد ما يرضي وما يطيب عن العلامة محمد رشيد رضا الذي تناغم فكره، فأصبح من عظماء النهضة العربية منذ بداية القرن العشرين.

هو "محمد رشيد بن علي رضا بن شمس الدين بن بهاء الدين القلموني الحسيني"، الذي مضى باحثا ومفكرا وناصحا ومرشدا حتى وافته المنية.. يعود نسبه لآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم. .. ولد سنة ١٨٦٥م في بلدة القلمون جنوب طرابلس لبنان، وتوفى سنة ١٩٣٥م بمصر. كان والده "علي رضا" شيخًا لبلدة القلمون وإمامًا لمسجدها، فعُني بتربية ولده وتعليمه. درس فحفظ القران وتعلم الكتابة والحساب.. دخل مدرسة الرشيدية وكان التعليم فيها باللغة التركية. لم يمض سنة إلا وترك المدرسة الرشيدية والتحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية لتعلم اللغة العربية. فكان من تعلم وعمل بالتدريس في المدرسة نفسها التي أسسها الشيخ "حسين الجسر" الذي أمده ببعض كتب الصوفية. مكث في هذه المدرسة سبع سنوات كان لها أثر كبير في حياته الحافلة بالعلم والمعرفة، وأثرت بعد ذلك في سيرته وبدأ التصوف.

درس "رشيد رضا" الحديث على يد الشيخ "محمود نشابة" وأجازه أيضًا لرواية الحديث، كما واظب على حضور دروس نفر من علماء طرابلس مثل: الشيخ عبد الغني الرافعي، ومحمد القاوقجي، ومحمد الحسيني، وغيرهم. كثيرًا ما كان يعكف أيضًا محمد رشيد رضا على قراءة كتب الصوفية وكثيرا ما كان يدرك بفطرته النقية بأنه مبالغ فيما قرأ، فيتركه ويمضي إلى قراءة القرآن والأذكار.

يقول محمد رشيد بأن ما حببه في التصوف هو كتاب "إحياء علوم الدين للغزالي".. ولما سأل شيخه الشاذلي محمد القاوقجي أن يُسلكه الطريقة الشاذلية الصورية،

اعتذر الشيخ الشاذلي وقال، هذا بساط قد طوي وانقرض أهله. فما كان من محمد رشيد إلا أن سلك طريقة النقشبندية بواسطة أحد الصوفيين النقشبنديين، وسار شوطا فيها.. وأيقن بعد ذلك أنها ليست ما يريد، لأنها تبيح ما كان منها بدعة. كما انه لم يُعجب بكتاب "الورد اليومي في طريقة النقشبندية"، لأن ذكر اسم الله بالقلب وليس باللسان خمسة آلاف مرة مع تغميض العينين وإيقاف التنفس أو حبسه بقدر ما يستطيع المرء، وإبقاء القلب مربوطًا بقلب الشيخ، هو بدعة كما تبين له بل انه شرك، فلا يجب أن يربط الإنسان قلبه إلا أن يتوجه بالعبادة إلى الله وحده حنيفًا مسلمًا له الدين فقط.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا أيضًا عن التصوف، إنه كان مقبولا لديه أن يسلك الإنسان طريق المعرفة، والوقوف على أسرار النفس البشرية لأجل معرفة الله إذا لم يجد وسائل أخرى.

أمضى محمد رشيد سنوات طويلة في التصوف وخاض بحره وعرف درره وما تقذف أمواجه من الجيف، وفي النهاية أيقن أن لا مذهب غير مذهب السلف الصالحين، ومن لا يأخذ به ويسير على هديه فهو في ضلال مبين.

تأثر محمد رشيد رضا بما كان ينشره العلماء في مجلة "العروة الوثقى" من أمثال "جمال الدين الأفغاني" والشيخ "محمد عبده" حيث تأثر كثيرًا بالأخير فقد التقاه وتعرف عليه حينما نُفيَ محمد عبده إلى لبنان بعد اتهامه بالاشتراك بالثورة العرابية، وهو الذي ثقفه وزاد علمه وأنار قلبه لنبذ البدع والجمع بين العلوم الدينية والعصرية والسعي لتمكين الأمة .. وقد وجد محمد رشيد في الشيخ محمد عبده أنه خير من يخلف "جمال الدين الأفغاني" في ميدان الإصلاح وإيقاظ الشرق من سباته. حاول الالتقاء بالعلامة جمال الدين الأفغاني الذي أعجب به كثيرًا، إلا أنه لم يحظ بلقائه واقتصر الأمر على تبادل الرسائل معه. وقد أعجب الأفغاني أيضًا بمحمد رشيد رضا وكان الأفغاني لا يستطيع مغادرة الآستانة حيث فرضت إقامته... وكان تحت رقابة الدولة فيها.. وبقي فيها حتى وفاته سنة ١٨٩٧م.

تأثر محمد رشيد أيضًا بكتب "ابن تيمية" و"محمد بن عبد الوهاب" مؤسس الوهابية الذي دعا إلى العودة بالإسلام إلى بساطته الأولى. وهكذا ابتعد محمد رشيد رضا عن البدع والتوهان، وجاهر علنا بإنكار سلوك الطرق الصوفية. قيل إنه في إحدى احتفالات الصوفية، تحدد وقت لإجراء الحفل فإذا بجمهور كبير يجتمع وكان يتصدر المجلس شيخ الصوفية. بدأ الحفل فانطلق شبان في مظهر حسن يرقصون على أنغام الموسيقى ويدورون في الساحة وحينما يصل احدهم أمام الشيخ يخر راكعا كنوع من العبادة. ما كان من محمد رضا رشيد في ذلك الجمع، أن وقف وسأل بأعلى صوته، ما هذا أيها المسلمون؟ فأجيب سؤاله بأنه تدين. فقال: إن هذا ليس إسلاما وهذه ليست عبادة ولا يجوز السكوت عليه.. وخرج وتبعه نفر من الحضور.

رحل محمد رشيد إلى مصر وبقي إنكاره على أهل الصوفية وأعلن رأيه في مجلة المنار بعد أن رأى البدع الكثيرة من أهل الطرق الصوفية في مصر أيضًا خصوصًا ما يحدث في احتفالات المولد النبوي. واستمر في تبحره بالقراءة عن الصوفية وظل ينتقدهم.

كان الشيخ محمد رشيد رضا يرى أنه من الضرورة لرُقي الأمة، أن يتم الجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا على الطريقة الأوروبية الحديثة مع التربية الإسلامية الوطنية. من ناحية أخرى، ولأنه مفكر إسلامي من رواد الإصلاح الإسلامي، وممن ظهروا في القرن العشرين.. فقد كان الإمام حسن البنا أكثر من تأثر به. كتب محمد رشيد رضا مئات المقالات التي تهدف للنهوض بالأمة وتقويتها، وخص العلماء بتوجيهاته، فقال في إحدى كتاباته: "إذا رأيت الكذب والزور والرياء والنفاق والحقد والحسد وأشباهها من الرذائل فاشية في أمة، فاحكم على أمرائها وحكامها بالظلم والاستبداد وعلى علمائها ومرشديها بالبدع والفساد، والعكس بالعكس". (عن أحمد الشرباصي: رشيد رضا صاحب المنار)

كان محمد رشيد من أكثر من جاهروا بأن الإصلاح يجب أن يتم عن طريق التربية والتعليم، وهو في هذا يتفق مع الشيخ محمد عبده. يقول الشيخ يوسف القرضاوي في كتابه "دراسة في فقه مقاصد الشريعة"، إن الشيخ محمد رشيد رضا أجاب على

سؤال: ما هو الدستور وما حقيقته، وهل هو موافق للدين الإسلامي تمام الموافقة؟ وما الدليل عليه من الكتاب والسنة؟ فقال محمد رشيد رضا في مجمل رده، " تنقسم الحكومة في عرف أهل العصر إلى قسمين أصليين: حكومة مطلقة وتسمى شخصية واستبدادية، وحكومة مقيدة أو دستورية ويعبر عنها الترك والفرس بالمشروطة أي: المشروط فيها العمل بالدستور". وهذا يدل على عصرنة الشيخ محمد رشيد الذي لا يمانع بالاستفادة من الفكر الأجنبي أيضًا. فاستشارة المسلمين غيرهم غير ممنوعة ما دامت تفيد العباد ولا تتخطى الحلال والحرام. فالزمان قد تغير وتغير العرف الذي بني عليه كثير من الأحكام، واستحدثت حاجات مفيدة كثيرة للناس لم تكن في الزمن الماضي الذي كان فيه الأئمة. وأساس الدستور في الدولة هو ان تنتخب الأمة نوابا عنها يقومون بوضع الأحكام التي تحكم بها، والدستور لن يمنع أن يكون الحكم متمشيًا مع الشرع.

▪ عبد الحميد بن باديس

عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩ – ١٩٤٠) أمام من رجالات الإصلاح في الوطن العربي، ورائد النهضة الإسلامية في الجزائر. هو مؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، انه هو "عبد الحميد بن محمد المصطفى بن المكي بن محمد كحّول بن الحاج علي النوري بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن بركات بن عبد الرحمن بن باديس الصنهاجي". ولد بمدينة "قسنطينة" عاصمة الشرق الجزائري، يوم الأربعاء الموافق ٥ ديسمبر ١٨٨٩م ـ الموسوعة الحرة

عبد الحميد كان الابن الأكبر لوالديه، أمه هي السيدة "زهيرة بنت محمد بن عبد الجليل بن جلّول" من أسرة مشهورة بقسنطينة لمدة أربعة قرون على الأقل، وعائلة "ابن جلّول من قبيلة "بني معاف" المشهورة في جبال الاوراس، انتقل أحد أفرادها إلى قسنطينة في عهد الأتراك العثمانيين وهناك تزوج أميرة تركية هي جدة الأسرة (ابن جلول).

عمل والده مندوبًا ماليًا، وعضوًا في المجلس الأعلى، وباش أغا لشرقي الجزائر، ومستشارا بلديا بمدينة قسنطينة ، ووشحت فرنسا صدره بوسام الشرف، وقد احتل مكانة مرموقة بين جماعة الأشراف. كان والده بارًا به يحبه ويتوسم فيه النباهة، سهر على تربيته وتوجيهه التوجيه الذي يتلاءم مع فطرته ومع تطلعات عائلته. عبد الحميد بن باديس نفسه يعترف بفضل والده عليه منذ أن أبصر النور وقد قال ذلك في حفل ختم تفسير القرآن سنة ١٩٣٨م، أمام حشد كبير من المدعوين: "إن الفضل يرجع أولاً إلى والدي الذي ربّاني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة أتبعها ومشربًا أرده، وبراني كالسهم وحماني من المكاره صغيرًا وكبيرًا، وكفاني كلف الحياة... فلأشكرنه بلساني ولسانكم ما وسعني الشكر".

هذا، وبطلب من جمعية العلماء الجزائريين المسلمين، ألقى ابن باديس محاضرة مهمة بتونس عام ١٩٣٦م، وأخرى في الوداديـة الجزائرية بتونس. كان ابن باديس يؤمن بوجود أوطان وراء هذا الوطن الصغير (الجزائر). وفي هذا قال "مصطفى بن بولعيد" قولته الشهيرة: " ارموا بالثورة إلى الشارع يحتضنها

الشعب" رغم أن الجزائر كانت تتشكل من مزيج ثقافي يختلف باختلاف كل منطقة (الأمازيغية، العربية، الترقية، الإباظية..). لقد كان ابن باديس واضحًا في إيمانه بالقومية العربية فأعطاها المحتوى نفسه الذي يتجه نحوه الفكر العربي التقدمي الحديث الآن.

لا شك في أن فكر العلامة ابن باديس القومي قد لعب دورًا كبيرًا في نهضة الجزائر والحفاظ على شخصيتها، وذلك بتركيزه على الجانب الاجتماعي والروحي في عملية الإصلاح، فقد سلّط الضّوء على الجانب العُرُوبي الإسلامي فأولى اللغة العربية اهتمامًا بالغًا وقدمها كقضية مِحْورية على ما عداها من القضايا الأخرى، فجعل القومية العربية الإطار العام الذي تندرج فيه الشخصية، لأن اعتماد التراث العربي الإسلامي واللغة العربية يستلزم إطارا واضحًا هو "القومية العربية "، إذ كتب في جوان عام ١٩٣٦ بمناسبة المولد النبوي الشريف مقالاً عنونه: "محمّد رجل القومية العربية" وقد فسر هذه التسمية وحللها منطقيا بقوله، "محمد صلى الله عليه وسلم هو رسول الإنسانية، لكن أول من توجه إليهم كانوا قومه العرب، فكان أولى عنايته موجها إلى قومه وكانت دعوته ترتيب حكيم لا يمكن أن يتم إصلاح إنساني أو شعبي إلا بمراعاة ذلك.

لا شك في أن البيئة الأولى لها أثر كبير في تكوين شخصية الإنسان، وفي بلد كالجزائر عندما يتفتح ذهن المسلم على معاناته من فرنسا، وعلى معاناته الجهل والاستسلام للبدع فسيكون هذا من أقوى البواعث لأصحاب الهمم العالية وذوي الإحساس المرهف على القلق الذي لا يهدأ حتى يحقق لدينه ولأمته ما يعتبره واجبًا عليه. كان ابن باديس من هذا النوع. وإن بروز شخصية كابن باديس من بيئة ثرية ذات وجاهة لهو دليل على إحساسه الكبير تجاه الظلم والظالمين، وكان بإمكانه أن يكون موظفًا كبيرًا ويعيش هادئًا مرتاح البال ولكنه اختار طريق المصلحين لكي ينهض بأمته.

كان ابن باديس عروبيًا مسلمًا، وكثيرًا تغنى بالعروبة وبالإسلام في أشعاره. وهنا إحدى قصائده:

* شعب الجزائر مسلم *

شَعْبُ الجزائرِ مُسْلِمٌ وَإلَى العُروبةِ يَنتَسِبْ
مَنْ قالَ حَادَ عَنْ أصْلِهِ وَإلَى العُروبةِ يَنتَسِبْ
مَنْ قالَ حَادَ عَنْ أصْلِهِ أو قالَ مَاتَ فقدْ كَذبْ
أوْ رَامَ إدمَاجًا لَهُ رَامَ المُحَال من الطّلَبْ
يَانَشءُ أنْتَ رَجَاؤُنَا وَبكَ الصّباحُ قدِ اقتَربْ
خُذْ لِلحَياةِ سِلاَحَها وَخُضِ الخُطُوبَ وَلاَ تَهبْ
وَأرفعْ مَنارَ الْعَدْلِ وَالإحْسـ ـان وَاصْدُمْ مَن غَصَبْ
وَاقلَعْ جُذورَ الخَائنينَ فمِنْهُم كُلُّ الْعَطبْ
وَأذِقْ نفُوسَ الظّالمِينَ سُمّا يُمْزَج بالرّهَبْ
وَاهْزُزْ نفوسَ الجَامِدينَ فرُبّمَا حَيّ الْخَشَبْ
مَنْ كَان يَبْغي وَدّنَا فعَلَى الْكَرَامَةِ وَالرّحبْ
أوْ كَانَ يَبْغي ذُلّنَا فلَهُ المَهَانَةُ والحَرَبْ
هَذا نِظَامُ حَيَاتِنَا بالنُّورِ خُطّ وَباللّهَبْ
حتّى يَعودَ لقومنَا من مَجدِهم مَا قدْ ذَهَبْ
هَذا لَكُمْ عَهْدِي بِهِ حَتّى أوَسّدَ في التُّرَبْ
فإذا هَلَكْتُ فصَيْحتي تَحيَا الجَزائرُ وَالْعرَبْ

تأثر ابن باديس بالشيخ محمد عبده في تفسير القرآن واختلف معه في توجيهه. كان محمد عبده يفسر القران لطلبة العلم أما ابن باديس فقد كان يشرح القران للعامة حتى يتذوقوا حلاوته وبلاغته. كانت مسيرة ابن باديس مليئة بالاجتهادات في تعليم الناس وغرس فيهم الشعور بالوطنية والغيرة الدينية في الوقت نفسه. كان يمسك بيد القران وبالأخرى يمسك بكتب السنة. كان يصفى الروايات ويغربلها ويوضحها، وكان كثيرًا ما يتجاوز ما لا يخدم العلم وينفر الطلاب منها، كان يدعوهم

إلى التحرر من المذاهب الكلامية التي لم يوجد مبرر لوجودها، كان يوصي طلبته بالتحلي بالعقيدة الصافية ويربطها بواقع الأمة.. ذلك هو ابن باديس رحمه الله.

▪ قسطنطين زريق

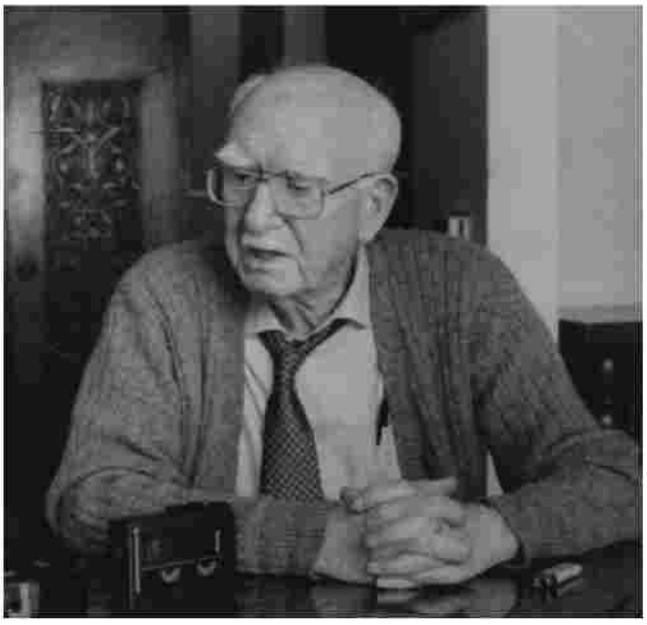

قسطنطين زريق (١٩٠٩ – ٢٠٠٠م) مؤرخ سوري وأحد أبرز دعاة القومية العربية. أطلق عليه أكثر من لقبٍ، بينها: شيخ المؤرّخين العرب، المُربّي النموذجي، مُرشد الوحدَويين، داعية العقلانيّة في الفكر العربي الحديث.

ولد زريق في دمشق عام ١٩٠٩م لعائلة عُرفت بتعاطيها الأعمال التجارية، وكانت تقطن حي القيمرية الشعبي الشهير في دمشق. أمضى قسطنطين طفولته وصباه في دمشق، وكانت عائلته قد انتقلت إلى دار للسكن تحيط بها الكاتدرائية والمدارس الأرثوذكسية، التي كانت تجاور الأحياء الإسلامية. وقد خلفت أجواء التسامح والتعاون التي سادت بين أبناء الديانتين أثرًا بالغًا في نفسية زريق وشخصيته.

كان قسطنطين زريق ينتمي إلى الطائفة الأرثوذكسية وفي مدارسها تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي، وعلى الرغم من الارتباط الطائفي لهذه المدارس، إلا أنها ضمت عددًا لا بأس به من التلاميذ المسلمين، وعَرفت برفعة مستواها خصوصًا في العلوم العربية.

بعد ذلك سافر زريق إلى بيروت وهناك التحق بالجامعة الأمريكية، وبدأ تخصصه بالرياضيات، إلا أنه تحول إلى التاريخ بعد وقت قصير بتشجيع من بعض أساتذته الدينيين. وكان قد شغر حينذاك كرسي التاريخ العربي، فرُشح زريق لإتمام دراسته التخصصية في الولايات المتحدة في هذا الموضوع إعدادًا له لتولي هذا الكرسي. وبعد أن تخرج بدرجة بكالوريوس في الآداب بامتياز، سافر إلى الولايات المتحدة ونال الماجستير من جامعة شيكاغو في عام ١٩٢٨ ، ثم الدكتوراه من جامعة برنستون عام ١٩٣٠م.

عاد زريق بعد تخرّجه إلى الجامعة الأمريكية ببيروت وترقى في درجاتها إلى أن أصبح رئيسًا للجامعة، وقد عمل زريق في غير جامعة عربية وأجنبية بعد ذلك. هذا، وتوزعت الوظائف التي احتلها زريق في حياته العملية بين التدريس الجامعي والعمل الأكاديمي والإداري والمناصب الدبلوماسية. فقد التحق لمدة بالسلك الدبلوماسي السوري بعد الحرب العالمية الثانية حيث خدم كمستشار أول، ثم كوزير مفوض في المفوضية السورية بواشنطن. وكان خلال ذلك عضوًا مناوبًا في الوفد السوري في مجلس الأمن الدولي. لكنه سرعان ما عاد بعد تجربته القصيرة في الميدان الدبلوماسي إلى الحياة الأكاديمية، حيث التحق بالجامعة الأمريكية من جديد وعُين أستاذًا للتاريخ، ونائبًا لرئيس الجامعة، وفي العام ١٩٤٩ أصبح رئيسًا للجامعة السورية، وبقي في هذا المنصب حتى العام ١٩٥٢ حيث أعيد تعيينه في ذلك العام أيضًا نائبًا لرئيس الجامعة الأمريكية، وعميدًا للكليات إلى أن أصبح رئيسًا للجامعة بالوكالة بين الأعوام (١٩٥٤- ١٩٥٧). وحصل في عام ١٩٥٦ على لقب أستاذ ممتاز للتاريخ، وعلى لقب أستاذ شرف في عام ١٩٧٦، كما أنه خدم كأستاذ زائر في جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة عام (١٩٦٥)، وجامعة جورج تاون (١٩٧٧)، وجامعة يوتا (١٩٧٧).

وحسب ما ذكر "مركز الشرق العربي للدراسات الحضارية والاستراتيجية" فقد كان زريق نشيطًا ذا ثقافة باذخة ومميزة خلال عضويته في الهيئة الدولية لكتابة التاريخ العلمي والحضاري للإنسانية التي رعتها منظمة اليونسكو (١٩٥٠-١٩٦٩) وخلال رئاسته للجنة الخبراء التي قامت بتقديم المشورة للحكومة الكويتية حول إنشاء جامعة الكويت. تقديرًا لنشاطاته قامت الحكومة السورية بتقليده وسام الاستحقاق (درجة ممتازة)، وقلدته الحكومة اللبنانية وسام المعارف (درجة أولى) ووسام الأرز الوطني (درجة كوماندو) ومنحته جامعة ميشغان دكتوراه فخرية في الآداب.

أجاد زريق اللغتين العربية والإنجليزية وكتب بهما، وأجاد الفرنسية وألم بالألمانية. لكن معظم كتاباته كانت بالعربية التي كان يفضل أن يخاطب القارئ العربي بها، وأن تكون المواضيع التي يختار الكتابة فيها ذات صلة مباشرة بالأوضاع السائدة في الوطن العربي وبمستقبله.

لا جدال في أن يُعتبر زريق من أبرز المفكرين القوميين العرب، ذلك التيار الذي راح ينمو في الوطن العربي منذ بداية القرن العشرين أثر ضعف وانتهاء الإمبراطورية العثمانية، حيث التف حول زريق مجموعة من القوميين الذين عُرفوا بجماعة الكُتاب الحمر. وبواسطة زريق دخلت مبادئ (الكتاب الأحمر) إلى الجامعة الأمريكية في أوائل الثلاثينات.. وهي مبادئ قومية، استجاب لها عدد غير قليل من الطلاب العرب من بلاد الشام والعراق والجزيرة خاصة. اشتمل كتابه الأحمر على تسع مبادئ، نذكر ملخصًا لها كما أورده "مركز الشرق العربي للدراسات الحضارية والاستراتيجية":

المادة الأولى: ما هي الفكرة العربية؟
الفكرة أو القضية العربية تعبير مطلق عن الحركة التي يقوم بها العرب لتحرير أنفسهم من الاستعمار والاستعباد والفقر والجهل وسائر ضروب الوهن، على أن يؤلفوا شملهم ويتحدوا في دولة عربية قومية قوية متحضرة، ليصونوا بذلك

كيانهم المادي والمعنوي، ويرفعوا شأنهم ويستمروا في تأدية رسالتهم الإنسانية والحضارية العالمية.

ـ المادة الثانية: ما هي القومية العربية؟

هي مجموعة الصفات والمميزات والخصائص والإرادات والمشاعر، التي ألّفت بين العرب، وكونت منهم أمة كوحدة الوطن واللغة والثقافة والتاريخ والمطامح والآلام والجهاد المستمر والمصلحة المادية والمعنوية المشتركة. فالقومية العربية هي محل تقديس وفخار عند العرب لأنهم تميزوا عن سائر الأمم، وامتازوا عليها خلال العصور، وبها نهض مجدهم الحاضر وكفل لنفسه النمو والبقاء إلى الأبد.

ـ المادة الثالثة: من هم العرب؟

العرب هم من كانت لغتهم العربية، أو من يقطنون البلاد العربية وليست لهم في الحالتين أية عصبية تمنعهم من الاندماج في القومية العربية.

ـ المادة الرابعة: ما هي البلاد العربية؟

البلاد العربية هي جميع الأراضي التي يتكلم سكانها اللغة العربية في آسيا وأفريقيا، أي هذه الأراضي الواقعة في الحدود التالية: من الشمال جبال طوروس والبحر المتوسط، ومن الغرب المحيط الأطلسي والبحر المتوسط، ومن الجنوب بحر العرب وجبال الحبشة وصعيد السودان والصحراء الكبرى، ومن الشرق جبال تشتاكو والبختيارية وخليج البصرة. أما الجزر القريبة من الشواطئ العربية والتي يسكنها العرب فهي عربية.

ـ المادة الخامسة: لزوم العصبية العربية وحدها.

يحرّم العربي العصبيات التي تضعف العصبية العربية كالعصبيات الطائفية والعنصرية والطبقية والإقليمية والقبلية والعائلية وأشباهها. والعربي يعلم أن الأديان السماوية ليست في ذاتها عصبية دنيوية، فهو بذلك يحترمها ولا يرى فيها ما يحمله على إنقاص ولائه التام للقومية العربية.

ـ المادة السادسة: وحدة الهدف في الجهاد.

يؤمن العربي بأن هدفه القومي في أصله وطبعه ومنتهاه واحد لا يتجزأ في الوصول إليه، وبأنه إلى هذا الهدف يجب أن توجه كل الجهود الفردية والجماعية. فالعربي يرى أن المساعي القومية التحررية التي يقوم بها العرب في هذا القطر وذاك من أقطارهم لا يجوز أن تؤدي إلا إلى التحرر والتوحد الشاملين. فكل عربي عليه أن يعمل في كل أرض عربية بما يعجل تحقيق هذه الغاية ويوطد أركانها ويكفل بقاءها.

ـ المادة السابعة: الاختلاف والتنوع في أساليب الجهاد.

ليست أقطار العرب اليوم سواء في العلم والجهل أو الغنى والفقر أو السيادة والاستعباد. فلذلك جاز أن تتنوع أساليب الحركات السياسية والاجتماعية فيها، وأن تختلف باختلاف القطر، على أن يكون بينها جميعًا ضابط يؤلفها وينسقها ويوجهها توجيهًا يضمن فعلها، في إيصال الأمة العربية إلى هدفها القومي العام بأقل التضحيات وأقصر زمن.

ـ المادة الثامنة: التنظيم هو الذي يؤلف المساعي القومية ويوجهها.

فهو على ذلك جزء من أجزاء العقيدة ووجه من وجوهها، ولا يجوز أن يصدر إلا عن وحي الإرادة العامة. وهذا التنظيم يقوم على ضبط الخواطر والنزعات والإرادات الشخصية الفردية أو القطرية الإقليمية، عند العرب وتحصين القوي منها وتسخيرها لخير القضية العربية الشاملة.

ـ المادة التاسعة: تحتيم الانتظام والجهاد.

قعود الفرد العربي وإحجامه عن الانتظام في مواكب الجهاد عجز وضلال يشبهان الخيانة، مثله الإخلال بالنظام بعد الانتظام، وفي ميسور كل عربي أن يجاهد بيده وبنانه، فإن لم يستطع فبلسانه وبيانه فإن لم يستطع فبقلبه وجنانه، ولا سيما حين تكون الأمة في ساعات العسرة أو الخطر.

هذا، وقد حدد "الكتاب الأحمر" أهداف الإنسان القومي العربي وواجباته وأمانيه إلى أن يصل إلى المادة الرابعة والأربعين فيقول:
"الدولة العربية دولة قومية لا دولة دينية، والأديان عندها هي سبيل المرء إلى خالقه في العبادات، فهي مصونة ومحترمة ومقدسة وفق ما يرد عنها في القوانين".

وقد أشار قسطنطين زريق في معظم كتاباته إلى الكثير من المفاهيم الأساسية التي أمدته في مجموعها بإطار ذهني أضفى على نتاجه طابعًا مميزًا. وأهم هذه المفاهيم ثلاثة: الحضارة والعقلانية والقومية. استطاع زريق باعتماده لمفهوم الحضارة أن يبلور أفكاره ضمن إطار إنساني وعالمي. فمفهوم الحضارة عنده هو معيار للمقارنة بين المجتمعات، وقياس مدى تقدمها ورقيها. وبالنسبة إلى العقلانية، احتل هذا المفهوم في فكر زريق مكانة رئيسية وشكل الواسطة التي أراد زريق لها أن تكون معبر العرب إلى الثقافة الحديثة، واعتمد في هذا المجال تعريفًا للعقلانية يتألف من عنصرين هما العلم والخلق... وأخيرًا حاز مفهوم القومية على الجانب الأكبر من اهتمامات زريق. فلقد نظر زريق إلى المسألة القومية على أنها مسألة الحياة العربية، وعمل جاهدًا على بلورة الشعور والتربية القومية. ومع أنه لم يقدم في كتاباته على تطوير فلسفة قومية متكاملة، إلا أنه نجح في إثارة هذه القضايا ولفت أنظار المفكرين العرب الآخرين إلى ضرورة التصدي لها.

في شهر مايو من عام ٢٠٠٠م توفي الدكتور قسطنطين زريق وخلّف وراءه مجموعة من المؤلّفات البارزة، أهمّها: الوعي القومي (١٩٣٩) ـ معنى النكبة (١٩٤٨) ـ أي غد (١٩٥٧) ـ نحن والتاريخ (١٩٥٥) ـ هذا العصر المتفجر (١٩٦٣) ـ في معركة الحضارة (١٩٦٤) ـ معنى النكبة مجددًا (١٩٦٧) ـ نحن والمستقبل (١٩٧٧) ـ مطالب المستقبل العربي (١٩٨٣) ـ من بعيد ومن قريب (مقالات وخطب ـ ١٩٩٤) ـ كرّاسي الكتاب الأحمر. تم جمع هذه المؤلفات تحت عنوان "الأعمال الفكرية العامة للدكتور قسطنطين زريق" وصدرت عن "مركز

دراسات الوحدة العربية" في أربعة مجلدات في بيروت عام ١٩٩٤م. هذا غير الكثير من المقالات التي نشرت في العديد من الصحف والمجلات العربية.

لقد أثار كتاب قسطنطين زريق "معنى الوعي القومي" ضجة ونقدًا كبيرين عند صدوره عام ١٩٦٠ (الصوت العربي الحر) خاصة في أوساط القوميين اليساريين وعلى رأسهم الأستاذ "رئيف خوري" الذي كتب نقدًا لاذعًا لكتاب زريق، وآخرين، الذين أخذوا على زريق تبنيه الدعوة للأخذ بالتنظيم الغربي للاقتصاد دون تدقيق أو تمييز، والنتيجة هنا طبعًا هي الترويج للرأسمالية كنظام، أو ما يسمى عادة "اقتصاد السوق"، وهو ما يعني فعليًا الدعوة للتبعية الاقتصادية الغربية، فقد بدا الأستاذ زريق منبهرا بالفلسفة الغربية بتياراتها المختلفة.

يقول منتقدو فكر زريق، لا يُظن بأن أحدًا من القوميين العرب يرفض الاستفادة من تجربة غيره على أرضية التأصيل، لا على أرضية فقدان الهوية، لكن الأستاذ زريق يدعو صراحة لتبني الفكر الغربي، في نظامه الاقتصادي وفي فلسفته وثقافته!! وما دام هذا يحدث من الدكتور قسطنطين زريق في عز فترة الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والغرب، فإن هذا الموقف ينم عن معنى واصطفاف سياسي محدد. هذا، ومما يلفت النظر أن زريقا دعا لتغريب الدعوة للقومية العربية في كتابه "معنى الوعي القومي" ، ويظهر ظهوراً غير مباشر في حديثه عن ضرورة فهم جذور العروبة، والتاريخ العربي، والجهاد العربي، الخ...، وهو ما لا يختلف أحد معه فيه، لكنه لم يذكر الوعاء والمرتكز الإسلامي للعروبة ولو مرة واحدة. فكيف يريد أن يعود لتاريخ العروبة ومعارك العرب الخ.. دون أن يذكر الإسلام في السياق نفسه؟!

لكن من جماليات الأستاذ زريق أن لديه أشياء مهمة يقولها، فهو ليس وعاءً فارغًا على الإطلاق، فنراه يتغنى بالعروبة وبالعرب ويقول بفخر واعتزاز: "فليس من المعقول أن الأمة العربية التي أنزلتها الأقدار في هذا الموقع الممتاز من الكرة الأرضية.. أن لا تكون لها مزية معينة تنفرد بها عن غيرها من الأمم، ويدٌ خاصة تسديها إلى التمدن البشري.. كما أن العرب استطاعوا في العصور الغابرة أن

يهضموا مدنيات اليونان والرومان والفرس والهند، ويمتصوها بعقولهم النشيطة ونفوسهم الظمأى ثم يخرجوها إلى العالم وحدة منسجمة غنية المادة باهرة اللون، كذلك ستكون مهمة العرب في العصور الآتية أن يتشربوا علم الغرب ويجمعوا إليه العناصر المختلفة التي تنشأ في الغرب والشرق كرد فعلٍ له، ويؤلفوا بينها كلها في وحدة جديدة تكون عنوان الحياة المقبلة، يفيض بها العرب على العالم كما فاضوا عليه بمدنيتهم الباهرة في القرون الماضية".

هذا، وقد وجد من دافعوا عن فكر زريق باستبسال أيضًا. إن كتاب "مؤسسة الدراسات الفلسطينية" الذي أصدرته تحت عنوان "قسطنطين زريق عربي للقرن العشرين" للباحث "عزيز العظمة" يتمتع بأهمية خاصة كونه يدافع عن فكر زريق القومي العربي. لأن من البؤس أن يُهزم العروبيون ذوو الرؤيا المستقبلية الخصبة والعلمية الأكاديمية، وتدفن خططهم العملية، وأن يصفق بحماسة لعروبيين بلا أفق، وما هم في أحسن الأحوال إلا حراس شعارات فارغة ليس لها فرص حقيقية لكي تنجح على أرض الواقع، كونها تدار بمزاجية وعفوية مخلصة لفوضاها، ولهذا لم تنجح في استنهاض الأمة العربية فظل حالها كما أراد لها أعداؤها.

لهذا يقول أيضًا المدافعون عن زريق، إن من الظلم أن تهمل رحلة زريق على مدار ما يناهز القرن، التي قيمتها أنها تتمفصل (في القرن العشرين) مع النضال الذي اشتعل من أجل إرساء هوية حضارية عربية حديثة إبان المد القومي الوحدوي الناصري والبعثي.

يقول عزيز العظمة في كتابه عن زريق، "حسنا فعل قسطنطين زريق أن أسلم الروح قبل الحرب الأميركية على العراق وقبل أن يتكاثر الذباب على جيفة العروبة، وقبل أن يرى التراخيص لعشرات الجامعات في لبنان وغير لبنان، التي تطبع شهاداتها وتوزعها على أنصاف أميين، لا يفقهون من العلم شيئا. ولا بد أننا نعرف اليوم أكثر من أي وقت مضى، أن الذهنية العربية مركبة، لغاية اليوم، وفق نهج تفكيري يلفظ قسطنطين زريق، ويتمنى في لا وعيه أن تبقى مشاريعه المؤرّقة في المزبلة، وإلى الأبد."

فهذا الأستاذ محمد سامي كيال ـ قاسيون، ينفض الغبار عما لحق بفكر زريق من إهمال ويذهب إلى العمق فيقول: بعيدًا عن تهويمات "القدر" و"العقاب الإلهي" و"المؤامرة الصليبية"، بحث كلاسيكيو الفكر النهضوي العربي وعلى رأسهم قسطنطين زريق عن الأسباب الذاتية للنكبة، فردوها للتخلف المسيطر على الوضع العربي، ورأوا أن حالة الانتكاس المعنوي التي تعيشها الجماهير العربية ستبقى قائمة مادامت الدول العربية بعيدة عن قيم التقدم والحداثة ـ هكذا جاء كتاب «معنى النكبة» لزريق في نهاية الأربعينيات من القرن الماضي ليكون الطرح الأكثر تماسكًا ضمن ذلك المنظور، وليشكل خطوة فكرية كبيرة إلى الأمام رغم كل ما قد تقدمه قراءتنا المعاصرة من انتقادات بخصوصه.

▪ محمد عزة بن عبد الهادي دروزة

هو محمد عزة بن عبد الهادي دروزة (١٨٨٧ ـ ١٩٨٤م) مفكر وكاتب ومناضل قومي عربي ولد في نابلس بفلسطين وتوفي في دمشق. إضافة إلى نضاله السياسي كان أديبًا ومؤرخًا وصحفيًا ومترجمًا ومفسرًا للقرآن. هو أحد مؤسسي الفكر القومي العربي. محمد عزة دروزة اسم كبير، ليس في حقل الكتابة فحسب،

بل إنه اسم وطني كبير على صعيد النضال الوطني، منذ فجر الحركة العربية الحديثة وبدايات الكفاح السياسي والمسلح ضد الصهيونية والانتداب البريطاني في فلسطين. فليس مبالغة القول إن سيرته السياسية والعلمية على أهميتها، لا تزال من الأمور المغفلة في حياتنا الثقافية والسياسية.

ولد "ابو زهير" محمد عزة دروزة في آخر شهر يونيو سنة ١٨٨٨م في مدينة نابلس الفلسطينية.. أبوه عبد الهادي بن درويش إبراهيم بن حسن دروزة. نشأ محمد في أسرة من عشيرة "الفريحات" التي كانت تسكن قرية في منطقة عجلون بشرق الأردن. ويبدو أن قسمًا كبيرًا من العشيرة قد هجر القرية في أوائل القرن الحادي عشر الهجري، واتجه بعضهم إلى نابلس في فلسطين.

حين بلغ محمد عزة دروزة الخامسة من عمره، ألحقه أبوه بأحد كتاتيب مدينة نابلس لكي يتعلم القراءة والكتابة وتجويد القرآن، وفي عام ١٨٩٥ ألحقه والده بالمدرسة الابتدائية الحكومية بعد إنشائها مباشرة، ثم انتقل بعد أن حصل على شهادتها إلى المدرسة الرشيدية الإعدادية وتخرج فيها سنة ١٩٠٦، وعلى الرغم من تفوق دروزة في دراسته الإعدادية إلا أن أحوال أسرته لم تسمح له بمواصلة الدراسة في الخارج. فقام بتثقيف نفسه، وتغطية جوانب النقص بالقراءة والإطلاع الدؤوب للتعويض عن عدم إتمام دراسته، فقرأ ما وقع تحت يديه من كتب مختلفة في مجالات الأدب والتاريخ والاجتماع والحقوق سواءٌ ما كان منها باللغة العربية أو التركية التي كان يجيدها.

عمل دروزة في ميدان التربية والتعليم، فتولى عام ١٩٢١م إدارة مدرسة النجاح الوطنية التي كانت قد تأسست في نابلس عام ١٩١٧م وتحولت المدرسة على يديه إلى مركز من مراكز الإشعاع الوطني إلى جانب رسالتها التعليمية والتربوية، فكانت تلقن طلابها حب العرب والعروبة، وتشعل في قلوبهم جذوة الوطنية، وتضع البرامج التي تغذي فيها الاعتزاز بالأمجاد والحضارة العربية والإسلامية.، فتخرج فيها قادة ورؤساء وزارات في الأردن. وقد أتاحت له ظروف عمله في البريد،

الإطلاع على العديد من الصحف التي ترد إلى تلك الدائرة، وكان أبرزها، المؤيد، الأهرام، المقطم، النار، الهلال، المقتطف.

وقد شارك دروزة في تأسيس معظم الجمعيات والأحزاب العربية الهادفة إلى تحقيق السيادة العربية واستعادة الوحدة السورية والعربية، مثل حركة المطالبة الإصلاحية عام ١٩١٢م، وحضر المؤتمر العربي الأول في باريس سنة ١٩١٣م، وجمعية العربية الفتاة سنة ١٩١٦م، والجمعية الإسلامية المسيحية سنة ١٩١٧م.، والنادي العربي.

بدأ نشاط محمد دروزة السياسي بعد إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، فقد انتسب في بداية الأمر إلى نادي جمعية الاتحاد والترقي في نابلس ولكنه سرعان ما انفصل عنه بعد أن تبين له أن القائمين عليه تنكروا لوعودهم، ثم سارع مع نفر من أصدقائه في مدينة نابلس إلى تأسيس فرع لحزب الائتلاف والحرية الذي تأسس في الآستانة بتركيا ليكون معارضًا لأفكار جماعة الاتحاد والترقي، وتسلم دروزة سكرتيرية هذا الفرع الذي كان له دور ملحوظ في إحباط أحد المشاريع الاستيطانية المبكرة في غور نابلس بفلسطين. وفي عام ١٩١٢ قام دروزة مع عدد من رفاقه من ذوي الميول القومية بتأسيس فرع لحزب اللامركزية المؤسس في مصر والذي كان من جملة أهدافه الاستقلال المحلي عن التبعية العثمانية.

بعد هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، سقطت سورية بيد الحلفاء وتم تنصيب الأمير "فيصل بن الحسين" ملكًا على سورية. وعندما أسس حزب الاستقلال الذي كان بمثابة واجهة سياسية للحكم الفيصلي في سورية، كان دروزة عضوًا مؤسسًا لهذا الحزب ومقررًا للدستور فيه، غير أن مدة العهد الفيصلي لم تدم طويلاً فقد حصل الاتفاق الإنجليزي الفرنسي بجعل سورية تابعة للنفوذ الفرنسي، وتخلت بريطانيا عن فيصل الذي دعا إلى المؤتمر السوري لإعلان استقلال سورية من طرف واحد، وكان دروزة أحد الذين اشتركوا في صياغة هذه الدعوة بصفته سكرتير المؤتمر، وهو الذي تلاها على الجماهير السورية المحتشدة يوم ٨ آذار ١٩٢٠ من شرفة البلدية بدمشق، وأدى ذلك إلى تدخل سريع من فرنسا حيث غزت

قواتها سورية وأسقطت الحكم الفيصلي فيها في ٢٤ يوليو ١٩٢٠، ثم أصدرت المحاكم العسكرية أحكامًا بالإعدام على عدد كبير من رجال العهد الفيصلي من سوريين وفلسطينيين من بينهم محمد عزة دروزة. دعا دروزة إلى النضال ضد المستعمرين الفرنسيين والبريطانيين. ولعب دروزة دورًا مفصليًا في الدعوة إلى إعادة توحيد فلسطين وسورية. ففي يونيه عام ١٩١٩، امتد نشاط دروزة القومي الوحدوي إلى حيفا، حيث كان يلقي المحاضرات القومية هناك بدعوة من رفيقه في حزب الاستقلال والقيادي الحيفاوي رشيد الحاج إبراهيم.

شغل دروزة، إبان عهد الأمير فيصل بن الحسين في دمشق، عضوية الهيئة المركزية لجمعية العربية الفتاة، ثم تولى أعمال السكرتارية فيها، وكان حلقة الوصل بين الجمعية من جهة، والأمير فيصل من جهة ثانية، وبين الجمعية والقوى السياسية من جهة أخرى. نتيجة لضيق نطاق العمل التنظيمي لجمعية العربية الفتاة، تأسس حزب الاستقلال العربي، في دمشق، عام ١٩١٩، كواجهة سياسية للجمعية، وكان دروزة عضوًا مؤسسًا فيه.

ولما أعلن الإضراب الكبير في فلسطين سنة ١٩٣٦، وانبثقت عنه حركة ثورية ضد الإنجليز واليهود، تشكلت نتيجة لذلك لجنة عليا مؤلفة من ممثلي الأحزاب برئاسة الحاج أمين الحسيني، مثل حزب الاستقلال فيها المحامي عوني عبد الهادي، وعندما اعتقل حل محله محمد دروزة ليصبح عضو اللجنة العربية العليا لفلسطين وسكرتيرًا لها، ولكنه اعتقل بعد ذلك لمدة ثلاثة أشهر. بعد أن طالت مدة الإضراب العام، ولحق الضرر بمصالح الشعب، تدخل الملوك والحكام العرب بإيعاز من بريطانيا ووجهوا نداءهم الشهير من أجل أنهاء الإضراب، وانتدبت اللجنة العليا العربية محمد عزة دروزة وبعض رفاقه لمقابلة ملكي العراق والسعودية لشرح وجهة نظر اللجنة العليا ورئيسها، وإطلاع العرب على حقيقة موقف الإنجليز. كما انتخب دروزة عن اللجنة العليا لحضور المؤتمر العربي الذي انعقد في بلودان عام ١٩٣٧ من أجل الحصول على تأييد عربي لرفض التقسيم، وألقى كلمة فلسطين في المؤتمر. ثم سافر دروزة إلى العراق لإنشاء لجنة الدفاع عن فلسطين، وفي أثناء

وجوده في بغداد سنة ١٩٣٧، انفجرت الثورة في فلسطين ثانية، وأعلنت السلطات حالة الطوارئ ووضعت يدها على الأوقاف الإسلامية وعزلت دروزة، ونفت بعض زعماء الثورة إلى جزر "سيشل"، وأصدرت قانونًا منعت به دروزة ومن لم يكن موجودًا من أعضاء اللجنة العليا في فلسطين من العودة، وظل هذا القانون نافذًا إلى آخر أيام الانتداب البريطاني، عندها سافر دروزة إلى دمشق، وهناك التقى الحاج أمين الحسيني، واشتركا معًا في إدارة الثورة وتمويلها، وكان ذلك سببًا لاعتقاله من قبل السلطات الفرنسية، حيث حكمت عليه بالسجن خمس سنوات، قضى منها أربعة أشهر في قلعة المزة، واثني عشر شهرًا في قلعة دمشق، ثم أفرج عنه مع المسجونين السياسيين السوريين أثر هزيمة فرنسا في نهاية عام ١٩٤٠ وذلك بمساعدة من صديقه الرئيس شكري القوتلي. (موقع مركز الشرق)

ألف دروزة عشرات الكتب، وبعضها بقي في مرحلة المخطوطات ولم يطبع أو ينشر. وقد نبعت أهمية كتب دروزة وخاصة مذكراته الشاملة من توثيقها للتاريخ الشفهي العربي والفلسطيني بالذات. مثلت العروبة قلب اهتمامات دروزة فاهتم بها سياسة وتاريخًا وكتب عن الحركة القومية العربية والقضايا العربية الساخنة. اعتبر دروزة أن الجنس العربي كان ينشد الوحدة السياسية والتاريخية منذ البدء ومن أقدم أزمنة التاريخ. وإن مطلب الوحدة القومية من وجهة نظر دروزة، هو مطلب غالٍ سائد يتخطى التاريخ الواقعي ويهيمن عليه بل إنه بداهة التاريخ العربي. لكن يتعين إكمالها بوحدة فعلية شاملة قوامها التوحيد السياسي، وهذه ضرورة تاريخية يفرضها الواقع العربي. من مؤلفات دروزة:

- "تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار من أقدم الأزمنة".
- "العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي من القرن الثالث إلى القرن الرابع عشر الهجري".
- الوحدة العربية. ١٩٤٦م مرجع كبير وشامل درس فيه قضية الوحدة العربية وأسلوب تحقيقها.
- "حول الحركة العربية الحديثة".

- "نشأة الحركة العربية الحديثة".
- "دروس التاريخ العربي من أقدم الأزمنة حتى الآن".
- "وفود النعمان على كسرى أنوشروان". رواية قومية ١٩١١م.

لدروزة راي في ميثاق الجامعة العربية - كتاب أريج دروزة للدكتور يحيي جبر، نقتبس منه رأيه في ميثاق جامعة الدول العربية حيث قال دروزة:
"والذي نعلقه على مواد الميثاق إنه كان من جهة يصدق عليه قول فارس الخوري إنه بداية متواضعة وإنه يحتوي جميع عناصر التدرج والتحسين في سبيل ترابط أتم وأوثق، فإنه ليس فيه أي نص يمكن أن يجعله يؤدي إلى اتحاد أو وحدة بالمعنى الذي نتصوره، دولة واحدة أو دولة ولايات متحدة في المصالح المشتركة العليا كأميركا أو سويسرة مثلاً *** كما إن فيه نوافذ عديدة للتفلت والتفسخ أيضًا".

هذا، وخلال وجوده في سجن الفرنسيين بدمشق، تعمق دروزة في دراسة القرآن والإسلام، واعتبر السجن منحة إلهية مكنته من إنجاز تأليف عدة مجلدات دينية وسياسية.

توفي محمد عزة دروزة في حي الروضة في عام ١٩٨٤م. وقد نقش على ضريح الفقيد أبو زهير:

هُنا استيْقظَ الجيلُ العظيمُ شرارةً
وأشْرقَ فجرُ الضادِ في العَتماتِ
يُقاتِلُ بالحرفِ المُضيء رسالة
وَيكْتُبُ... فالتاريخُ حِبْرُ دوَاةِ
وأعْطى... فكانتْ أرْوَعُ الصَّفحَاتِ

▪ زكي نجيب إبراهيم الأرسوزي

هو الفيلسوف "زكي نجيب إبراهيم الأرسوزي" من مواليد مدينة اللاذقية (١٩٠٠ – ١٩٦٨م) لأب محام نشط في صفوف الحركة العربية، وأم من قرية "أرسوز" الواقعة على خليج اسكندرون شمال غرب أنطاكية، فمن المؤكد أنه عاش طفولته السعيدة وشبابه القلق في مدينة انطاكية في أجواء الانتداب الفرنسي. استقر في دمشق في الثلث الأخير من حياته، في منزل متواضع لا يبعد كثيرًا عن وزارة الصحة. عاش الأرسوزي الحالم بالثورة القادمة لا محالة عيشة فقر لا تطاق وفي ظروف حياتية صعبة. وعلى الرغم من ذلك فإنه تابع نشاطه الفكري من أجل تحرير الإنسان العربي من قبضة الجهل والخوف.

الأرسوزي مفكر وعالم عربي هو من أهم مؤسسي الفكر القومي. يقول الأرسوزي في الحديث عن فلسفته العربية: إن مدخلها رحماني، وأن نهجها فني، وأن غايتها

الذات، وأنها مستوحاة من الحياة. إنها فلسفة عربية لأن أصولها قائمة في اللسان العربي. وهو يرى أن في الحياة اتجاهين: السطح والعمق. يبدو السطح في الكائنات الحية المنتشرة في الزمان والمكان. أما العمق فيتصل بالمعنى الذي هو مصدر كل حياة وكل فعل. هذا، ويبدو فخر الأرسوزي وولاؤه للعروبة حينما يقول، إن للسان العربي فرادته من حيث ما هو وما يعبر عنه. إنه بدائي بمعنى أنه ليس مشتقًا من شيء آخر سوى الطبيعة. ثم إنه بدائي لأن الابتداء يكون بإطلاق المعنى.

درس الأرسوزي في اللاذقية ثم انتقلت الأسرة من اللاذقية إلى أنطاكية وأقامت فيها زمنًا. وفي سنة ١٩١٤ نفت السلطات العثمانية الأب وأفراد أسرته إلى قونية (تركية)، وهنا واصل زكي الأرسوزي الدراسة في مدرسة قونية وأتقن اللغة التركية. وفي سنة ١٩١٩ سافر إلى بيروت، ودرس الفرنسية في معهد اللاييك، ثم عاد إلى أنطاكية مدرسًا للرياضيات في المدرسة الثانوية. وفي سنة ١٩٢٤ عُيّن مديرًا لناحية أرسوز، وبعد نحو سنة نقل وعين أمين سر دائرة المعارف في أنطاكية. أرسلته الحكومة السورية إلى فرنسا لدراسة الفلسفة في جامعة السوربون عام ١٩٢٧ ، وفي سنة ١٩٣٠ عاد إلى أنطاكية مدرسًا للفلسفة والتاريخ في المدرسة الثانوية، وأما تدريسه فكان يغلب فيه تمحوره حول حق العربي في الحرية والاستقلال والثقافة والتعليم. وبعد ثلاث سنوات نقل إلى حماه وحلب ثم إلى دار المعلمين بدمشق واستمر في هذا العمل الأخير حتى إحالته على المعاش سنة ١٩٥٩م.

عرف عن الأرسوزي ارتياده إحدى مقاهي دمشق فكان له مقعد فيها حيث كان يلتقي المثقفون والكتاب والأدباء والطلبة والباحثون وغيرهم، وقد أسس جريدة العروبة. إبان الحكم العثماني للولايات العربية كان ينادي الأرسوزي بالعدالة وحق العربي بالحرية وإلغاء التمييز بين الناس من كل شكل ونوع. كان المعيار الذي يعتمده الأرسوزي في الحكم على سلوك كل إنسان عربي درجة الأمانة للعروبة.

عاني الأرسوزي شظف العيش بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٥ ، فكانت فترة صعبة وقاسية عليه، ولكنها وفرت له فرصة التفرغ لدراسة اللغة العربية، فكانت هذه الدراسة منطلقًا في تفكيره الفلسفي والقومي، واهتمامه باللغة العربية وعبقريتها.

كان لاقتطاع "لواء اسكندرون" من سورية من قبل الاستعمار الفرنسي كبير الأثر على زكي الأرسوزي وهو يرى جزءًا من بلاده ينتزع ويسلخ دون وجه حق من قبل مستعمر لا هم له سوى مصالحه. أدت هذه الحادثة إلى ثورة الأرسوزي على فرنسا وتركيا وقاد حملة لمقاومة التتريك في لواء الإسكندرونة. لاقت أفكار الأرسوزي ودعوته صدى وتأييدًا من المثقفين والطلاب في دمشق، وبذلك طرح نفسه كزعيم قومي أستلهم حزب البعث أفكاره التي تلقفها "ميشيل عفلق".
اتجه الأرسوزي منذ سنة ١٩٤٠م إلى تأليف حزب عربي قومي شعاره بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم. وقد انضم إليه عدد كبير من الطلاب الذين آمنوا بما كان يؤمن به. وفي سنة ١٩٤٧ عقد المؤتمر التأسيسي الأول لحزب البعث، ولكن زكي الأرسوزي كان بعيدًا عن المؤتمر، وآثر الانصراف إلى التفكير الفلسفي القومي العربي الذي هو في القاعدة من بناء البعث، فكان كتابه الأول "العبقرية العربية في لسانها" المعبّر عن المنطلق الذي أخذ به.

من مؤلفات زكي الأرسوزي التي جمعت في دمشق بين عامي ١٩٧٢ و١٩٧٦ وصدرت في مجلدات هي:
- العبقرية العربية في لسانها.
- رسالة الفلسفة والأخلاق.
- رسالة الفن.
- رسائل المدينة والثقافة.
- الأمة العربية.
- صوت العروبة في لواء الإسكندرونة.
- متى يكون الحكم ديمقراطيًا.
- الجمهورية المثلى.
- التربية السياسية المثلى.

نزح الأرسوزي إلى دمشق من لواء الأسكندرونة عقب اقتطاع فرنسا له وتسليمه إلى تركيا بعد أن قاد حملة لمقاومة التتريك في لواء الأسكندرونة. عمل بالتدريس في المدارس الثانوية وأخذ يعمل علي نشر أفكاره القومية بين طلاب المدارس الثانوية في دمشق عن طريق مجموعة الطلاب اللوائيين (نسبة إلى لواء الاسكندرونة) الذين نزحوا معه. وعملوا في الطريق إلى القومية العربية الحقة بدءًا بالتململ العربي في الولايات العربية العثمانية، وحيث راحت تنتشر الأفكار القومية والمطالبة بالحقوق للعرب في أوساط المثقفين من الشباب العربي النهضوي. فخرجت المؤتمرات والأحزاب والحركات الوطنية العربية التي راحت تطالب بإنصاف العرب لاستعادة الكرامة والثقة بالنفس وراحت تطالب بالاستقلال في أمور الحياة، وراح الشعور القومي يكبر كلما ازدادت مشاكل الخلافة العثمانية.

مساء الثاني من يوليو عام ١٩٦٨م، غادر الأرسوزي المشفى عائدًا إلى منزله بعد أن استفحل المرض فيه وانعدمت فرصة النجاة، وهناك تمدد على سريره.. وكانت آخر كلماته: "العربي هو سيد القدر، أنا متفائل بسير التاريخ العربي المواكب للشموخ القومي".

▪ الشيخ عبد الله العلايلي

هو الشيخ عبد الله بن عثمان العلايلي (١٩١٤-١٩٩٦م) مفتي جبل لبنان سابقًا ولد في بيروت حيث كانت ولادته في عائلة متوسطة تقيّة ميسورة كانت تشتغل بالتجارة. قال عن طفولته بأنها كانت "كئيبة" ذلك أنه ولد مع اندلاع الحرب العالمية الأولى وما رافقها من اضطرابات سياسية وعسكرية وحياة معيشية صعبة وانهيار للإمبراطورية العثمانية التي كان لبنان جزءًا منها.

درس العلايلي في كتاتيب بيروت - منها كتّاب المعلم عيسى، وكتّاب الشيخ نعمان الحنبلي في خندق الغميق في قلب بيروت، وانتقل بعد ذلك إلى كتّاب الشيخ مصطفى زهرة في منطقة زقاق البلاط البيروتية. التحق بمدرسة الحرج التي أسستها جمعية المقاصد الإسلامية حيث تلقى مبادئ القراءة والعلوم حتى عام ١٩٢٤م تاريخ انتقاله إلى الأزهر في القاهرة ليتخرج في الأزهر سنة ١٩٣٦م على أيدي نخبة من العلماء حيث تتلمذ هناك على أيدي علماء عدة منهم "سيد المرصفي" و"يوسف الدجوي". في القاهرة أيضًا تعرف إلى الشيخ محمد عبده والشيخ جمال الدين الأفغاني وأبطال وطنيين آخرين.

وفي القاهرة أيضًا شرع في تأليف كتابه "مقدمة لدرس لغة العرب". كما أصدر كتابه "مدخل إلى التفسير" ونظم الكثير من الشعر الغزلي والصوفي. كان العلايلي يزور لبنان بين حين وآخر فيذهب إلى الندوة الأدبية، ليتعرف إلى علماء بيروت وليخطب في الجامع العمري الكبير، كما شارك عام ١٩٣٦ في تأسيس عصبة العمل القومي. انتسب في السنة التالية لتخرجه في الأزهر إلى كلية الحقوق بالقاهرة ولكنه اضطر عام ١٩٤٠م إلى قطع دراسته والعودة إلى بيروت بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية واشتداد الحملة الألمانية على مصر. وفي بيروت تسلم مهمة التدريس في الجامع العمري الكبير ببيروت واستمر فيه ثلاث سنوات يخطب في المصلين داعيًا إلى نبذ الطائفية والانتفاضة ضد الانتداب الفرنسي.

أصدر العلايلي أربعة كتب عكست آراءه آنذاك:
الأول، "مقدمة لدرس لغة العرب" (القاهرة ١٩٣٨).
الثاني، "سورية الضحية" هاجم فيه معاهدة ١٩٣٦ مع الفرنسيين.

الثالث، "فلسطين الدامية".
الرابع، "إني أتهم" هاجم فيه التفكك الطائفي الذي استشرى في المجتمع اللبناني.

كما استمر العلايلي في كتاباته الدينية - التاريخية في كتب مستقلة ومقالات صحافية يومية وأسبوعية. وشارك في نشاطات سياسية وطنية واسعة. أما في كتابه "العرب في مفترق الخطر" فقد وضعهم أمام مسؤولياتهم، خاصة فيما يتعلق بقضية فلسطين.

كانت غاية العلايلي في اتجاهين، أحدهما لغوي والآخر سياسي، وهما - في رأيه - متكاملان، ففي الاتجاه اللغوي، حاول تصحيح مسيرة اللغة العربية، وفي الاتجاه السياسي حاول تصحيح الأوضاع الاجتماعية للمواطنين، ليؤكد الشعور بالوطنية الصحيحة لديهم. كان العلايلي يرى "أن اللغة هي مجموعة الأفكار والتقاليد والعواطف... تنمو أو تموت، تتحرك أو تأسن، بحسب حاجة الناس إليها أو بمدى ارتباطها بنشاط الإنسان".

كان يرى العلايلي أنه لابد للعرب من معجم يعيد للعربية وضعها اللغوي الصحيح، فعمل على وضع "المعجم" وهو في رأيه أمر أعسر من أن تتحمله طاقة إنسان معرفة وعمرًا. لقد قرر أن يصدر ٥٧٦ قسمًا، يضمها أربعة وعشرون مجلدًا، والمخطوطات ما زالت جاهزة في بيروت، لم يصدر منها إلا أربعة أقسام عام ١٩٥٤، والباقي ينتظر التمويل للطباعة.

وعى العلايلي باكرًا طبيعة المشاكل العربية عامة واللبنانية خاصة. وأشار إلى مكونات هذه المشاكل وعواملها فقال، "أما العرب اليوم فقد زاد التأجيج بينهم وهذا ما لا ينكر، نتيجة عوامل عديدة أهمها، التسميم الأجنبي بعد الانتداب، حزبية المناسبات، الثقافة المأجورة، تطويعنا ماديًا وأدبيًا على قوانين ليست انعكاسات لأصدائها وأصداء بيئتنا، والتمدن المغرور في العادات والسّنن ومناهج السلوك". "أنا أفكر إذاً أنا موجود" انطلاقًا من قول الفيلسوف الفرنسي ديكارت، ربط العلايلي بين اللغة القومية والفكر القومي قائلا: "أنا أفكر بفكر عربي، فإذن أنا موجود

عربي". وأوضح هذا القول الذي تبناه طيلة حياته قائلاً: "فإذا لم تكن لنا لغة قومية تامة صحيحة فلن يكون لنا فكر قومي تام صحيح. ففرض إنسان بدون لغة معناه فرض إنسان بدون فكر". اهتم باللغة كثيرًا فقد بدت عنده مثل: "كائن اجتماعي وفكري ثابت تعبر عن حقيقة ثابتة في المكان، وعن وحدة عددية تقيس شعور الإنسان... لذلك أضحت اللغة ضرورة اجتماعية ونفسية معًا، أهم بواعثها الفكر وعلاقاته ودلالاته وإشاراته المجازية... إنها بذلك مؤسسة ترتبط ارتباطًا مباشرًا بنشاط الإنسان". وعبّر في كتابه "دستور العرب القومي" تعبيرًا واضحًا عن هذه المسألة التي اسمها اللغة.

لا شك في أن توجه العلايلي كان توجهًا قوميًا فكان يؤكد دائمًا على الوحدة العربية والقومية العربية أكثر مما كان في اتجاه الدعوة لتوحيد الأمة الإسلامية أو التأكيد على الرابطة الدينية.

كانت مواقف العلايلي السياسية مميزة فكان يساهم في العمل السياسي من خلال مشاركته في بعض الأحزاب والحركات ومناصرته لقضايا الشعوب. ومن بين الأحزاب التي انتمى إليها العلايلي وشارك في تأسيسها: عصبة العمل القومي، حزب النداء، حركة التحرر الوطني، الحزب التقدمي الاشتراكي. والطريف أن العلايلي كان مؤيدًا للانقلابات الشعبية ضد الأنظمة والحكام فبارك الانقلابات العسكرية العربية ثم انقلب عليها وهاجم قادتها الذين "تميزوا بالصفة العسكرية وطبعوا الانقلاب بطابعه.

وقف العلايلي بجانب المرأة وأيدها في الحياة والمجتمع، كما كانت له ثقة بالعقل البشري وبقدرته وأكد على دور اللغة لما لها من علاقة وثيقة كأداة تعبير عن الفكر، وربط بين التطور الحضاري والتطور اللغوي. ووصف "الركود والأسوار" قائلا إن الركود يعني الموت والأسوار "توابيت الاعتياد التقليدي".

وعن منتدى الكاشف – للعلايلي نظرته للشريعة العملية كما يسميها - فهو لا يحتج إلا بالقرآن والحديث المشهور، وما دون ذلك فهو عنده مما يستأنس به فقط ولا تقوم به حجة، فنراه يقو: "إني في الواقع لا أقول ولا أعتد إلا بالتنزيل الكريم

وبالمشهور من الحديث الذي هو في قوة المتواتر". ويفرق في موضع آخر من كتابه بين العبادات والمعاملات في الاحتجاج بالسنة، فيرى أنه في (العبادات) ينبغي الأخذ بالقرآن وما صح من الحديث. وفي (المعاملات) يؤخذ بالقرآن وحده ويستأنس بالحديث استئناسًا فقط، ويبرر هذا التفريق المأثور والشائع (أنتم أدرى بشؤون دنياكم)...، ووجه التفرقة بين العبادات والمعاملات أن الأولى تبتلات وابتهالات شأنها تسامي الفرد روحيًا... بينما الثانية شأنها التنظيم الاجتماعي العام... وهي خاضعة للمتغيرات العاملة الدائبة ففي كل حين هي في شأن. ومن هذا المنطلق نجده في كتابه يجيز زواج المسلمة من الكتابي!! اعتمادًا على قوله تعالى: (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) ، فالآية كما أنها صريحة في النص على تبادل حلية الطعام؛ هي – في نظره- صريحة في تبادل حلية الزوجية؛ أي نساؤهم حل لنا ونساؤنا حل لهم، ويرى أن الفقهاء وإن درجوا إجماعًا على القول بعدم حل مثل هذا الزواج إلا أن إجماعهم – في نظره- متأخر ولا يقوم على دليل قطعي.

كان عبد الله العلايلي ليس مجرد شارح أو ناقد أو معقب على ما يقرأ من نصوص وشواهد في اللغة فحسب، بل هو صاحب رسالة في الأدب واللغة والقومية عبر عنها بوضوح في جميع كتبه ومقالاته وأبحاثه.

▪ الأمير عبد القادر الجزائري

عبد القادر الجزائري (١٨٠٨ ـ ١٨٨٣م)، هو الشيخ عبد القادر ابن الأمير محيي الدين الحسني، يتصل نسبه بالإمام الحسين بن علي ويعتبر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة. ولد الجزائري في قرية "القيطنة" بوادي الحمام التابعة لوهران من عائلة مرابطيّة كريمة مشهورة بالفضل والكرم، تنحدر من سلالة مولاي إدريس.

لما خرج والده من الجزائر في رحلة طويلة بعد تحديد إقامته لخلافه مع الحاكم العثماني، خرج معه عبد القادر فكانت رحلة عبد القادر إلى تونس ثم مصر ثم الجزائر ثم بلاد الشام ثم العراق ثم العودة إلى الحجاز، ثم العودة إلى الجزائر مارًا بمصر وبرقة وطرابلس ثم تونس وأخيرًا إلى الجزائر من جديد عام ١٨٢٨م ـ رحلة تعلم ومشاهدة ومعايشة للوطن العربي في هذه الفترة من تاريخه، وما لبث الوالد وابنه أن استقرا في قريتهم "القيطنة" إلى أن قامت فرنسا بحملة فاحتلت الجزائر وطردت الحاكم العثماني وتحول الجزائريون إلى المقاومة.

كان عبد القادر الجزائري عالم دين، وشاعرًا، وفيلسوفًا، وسياسيًا ومحاربًا في آنٍ واحد، نشأ في حجر والده وتتلمذ على يديه، وكان يترأس الطريقة القادريّة. اشتهر بمناهضته للاحتلال الفرنسي للجزائر. فقد كان قائدًا فذًا عبقريًا وخطيبًا ملهما، جمع بين السيف والقلم، أول من أثار الضمير الشعبي الجزائري، وبذر بذور الثورة ضد الاستعمار الفرنسي، وكان بعد ذلك عالم الأمراء وأمير علماء دمشق. سافر بصحبة والده في جولة علمية إلى الديار الحجازية ودمشق وبغداد كما أسلفنا، حيث التقى الشيوخ والعلماء أمثال: المحدث الكبير عبد الرحمن الكزبري في دمشق، والإمام خالد النقشبندي السهروردي، والسيد محمود الكيلاني في بغداد، ومن لقيهم من بعد في دمشق كالسيد محمود الحمزاوي، ومحمد الخاني.

أقام في ضيافة الشيخ محمد زكريا قاضي تدمر عدّة أشهر، في طريقه إلى بغداد. بايعته القبائل العربية في الجزائر بعد أبيه على نصرة الإسلام سنة ١٨٣٢م، ولقب بناصر الدين، فجمع كلمتها، وخاض المعارك دفاعا عن استقلال المغرب العربي، وانتصر في معركة وهران. وفي كيف احتلت فرنسا الجزائر، فإن الاستعمار لا بد أن يخلق مبررًا لغزو بلد آخر:

لما أدرك نابليون بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١) أهمية الجزائر الاستراتيجية والاقتصادية، وقد وضع أثناء مدة حكمه مخططًا عسكريًا شاملاً لاحتلال الجزائر باعتبار أن شواطئ الجزائر قريبة من فرنسا وكانت خطته تقضي بأن يتجه منها بعد احتلالها إلى مصر وفلسطين عن طريق البر بعد أن يجعل من موانئها قواعد عسكرية لبحريته. (مجلة الجندي المسلم : سيرة وتاريخ – نشر بتاريخ: ٢٠٠٣/٠٤/٠١ - بقلم شاهر يحيى وحيد)

وفي هذا يقال بأن تسارع الصراع بين فرنسا وبريطانيا جعل نابليون يرجئ احتلال الجزائر ويقوم باحتلال مصر أولاً على أن يقوم بالسير باتجاه الجزائر برًا من مصر وفعلاً كان على وشك الانطلاق بجيشه نحو الجزائر بعد أن احتل مصر إلا أنه في اللحظة الأخيرة قرر التوجه بالجيش إلى فلسطين واحتلالها؛ ومن ثم السير باتجاه

الجزائر، لكن الأحداث التي تلت لم تسعف نابليون بونابرت فقد هزم في عكا ثم في مصر على يد الإنجليز.

حينما استلم شارل العاشر الحكم في فرنسا بعد نابليون كانت فرنسا غارقة في مشاكل داخلية وخارجية تهدد وجودها بعد أن خسرت معظم مستعمراتها فعانت عجزًا في خزينتها وعجزت عن سداد ديونها الخارجية وفي مقدمتها الديون الكبيرة للجزائر كأثمان سلع غذائية وحبوب اشترتها فرنسا من الجزائر. فوجد شارل العاشر احتلال الجزائر مخرجًا لفرنسا من أزمتها. لكن مشكلته هي أن فرنسا كانت قد رفعت شعارات: الحرية، والمساواة وحق الشعوب في تقرير مصيرها؛ ولهذا خطط لافتعال حادثة واهية مفادها: أن القنصل الفرنسي (ديفال) تطاول على الباي في مجلسه عندما كان يطالبه بأن تسدد فرنسا فواتيرا للجزائر فلوح الباي بمروحته باستياء وطلب من القنصل مغادرة مجلسه فاعتبر شارل هذا التصرف من الباي إهانة للأمة الفرنسية كلها ووجه الجيش الفرنسي والأسطول برمته لاحتلال الجزائر، واحتُلت فعلاً في عام ١٨٣٠م.

قاوم الجزائريون الغزو الفرنسي، لكن لم تكن مقاومة منظمة؛ ولذلك لم تعط مفعولها المطلوب بشكل كامل عوضًا عن أن عتادها بدائي، لذلك تنادت القبائل إلى اجتماع عام عقد في وهران عام ١٨٣٣م وانتخبت السيد (محي الدين الحسني والد الأمير عبد القادر) قائدًا عامًا لثورة القبائل على الفرنسيين وقد قبل الحسني المهمة مدة إلا أنه وبسبب كبر سنه اقترح تسليم المهمة إلى ابنه عبد القادر الذي كان عمره أربعا وعشرين عامًا، فوافقت القبائل، وتمت مبايعة عبد القادر في مسجد مدينة "معسكر". فكان أول ما فعله بعد تسلمه القيادة تكوين جيش قوي على أسس تنظيمية من جميع القبائل العربية اسماه (الجيش المحمدي) مما أعطاه المزيد من الهيبة السياسية بين القبائل وبعد أن أنهى تكوين جيشه طلب من القبائل قطع جميع علاقاتها مع الفرنسيين وعدم مغادرة أراضيها تحت أي إغراء أو ضغط وبهذا الإجراء عزل الفرنسيين الغازين عن الشعب الجزائري من جهة، وخلق القناعة التامة في نفوس الجزائريين بأن مقاومة الغزاة الفرنسيين واجب ديني جهادي من يتخلى عنه يخرج عن إرادة الأمة المسلمة.

الفرنسيون من ناحيتهم شعروا بالخطر الذي يتهدد مصير خطتهم الاستعمارية في الجزائر بعد ظهور الجيش المحمدي بقيادة عبد القادر، فاستقدموا المزيد من القوات، والأسلحة المتطورة بمقاييس ذلك الوقت وعملوا على بث الفرقة بين القبائل بالقهر، وضغطوا على سلطان المغرب ليوقف أي دعم لعبد القادر. خاض الأمير الجزائري معارك المقاومة ضد الفرنسيين وانتصر في بعضها. وحينما ضيق الفرنسيون كأكبر جيش لدولة استعمارية في ذلك الوقت على جيشه، لجأ عبد القادر الجزائري إلى المغرب ورفض سلطان المغرب تسليمه لفرنسا فوجهت فرنسا بحريتها وقصفت مدن (وجدة) و(طنجة) و(والصويرة) وغيرها من المدن المغربية الساحلية؛ وكان القصف وحشيًا وكثيفًا ألحق الخراب والموت بهذه المدن، عندها غادر الأمير عبد القادر إلى الجزائر مقررًا متابعة النضال منها، في حين أجبرت فرنسا سلطان المغرب على عقد معاهدة معها على أن يمتنع بموجبها عن مساعدة الأمير أو إيوائه.

كان الجيش الفرنسي بعد كل مواجهة مع جيش الأمير يقوم بحرق الأرض التي تمت فيها المواجهة ويدمر القرى ويعدم العشرات من المدنيين فكان لابد أن يضع الأمير حدًا لما يرتكبه الفرنسيون فقبل الاستسلام للجنرال "لامور يسيار" في شهر مارس عام ١٨٤٧ بعد خمسة عشر عامًا من النضال المتواصل والمشرف. يقول عبد القادر الجزائري عن قبوله بالاستسلام: "إذا كان توقفي عن القتال سيريح فرنسا فإن راحتهم لن تطول؛ لأن البداية لم تحن بعد، سيأتي غيري من بعدي ويبدأ من جديد"!

وحتى يلم القارئ أكثر بمن هو الأمير عبد القادر الجزائري: تلقى الأمير الشاب مجموعة من العلوم فقد درس الفلسفة ودرس الفقه والحديث، ودرس صحيح البخاري ومسلم، وقام بتدريسهما، كما تلقى الألفية في النحو، والسنوسية، والعقائد في التوحيد، وايساغوجي في المنطق، والإتقان في علوم القرآن. وبهذا اجتمع للأمير العلم الشرعي، والعلم العقلي، والرحلة والمشاهدة، والخبرة العسكرية في ميدان القتال، وعلى ذلك فإن الأمير الشاب تكاملت لديه مؤهلات

تجعله كفوًا لهذه المكانة، وقد وجه خطابه الأول بعد المبايعة إلى كافة القبائل قائلاً: "... وقد قبلتُ بيعتهم (أي أهالي وهران وما حولها) وطاعتهم، كما أني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه، مؤملاً أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين، ورفع النزاع والخصام بينهم، وتأمين السبل، ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة، وحماية البلاد من العدو، وإجراء الحق والعدل نحو القوي والضعيف، واعلموا أن غايتي القصوى اتحاد الملة المحمدية، والقيام بالشعائر الأحمدية، وعلى الله الاتكال في ذلك كله".

لم يعترف عبد القادر الجزائري بسيادة فرنسا على بلاده، وكان حاكمًا جريئًا، شجاعًا، يتقدّم الجيوش بنفسه، ولا يبالي بكثرة العدو واستعداده. ولما أراد الاستعانة بشيوخ الطريقة التيجانيّة في طرد الفرنسيين، رفضوا الانخراط في جيشه تمشيًّا مع روح صوفيّتهم التي تأبى التدخل في السياسة، فقام بعدّة حملات على مركز التيجانيّة في (عين ماضي). قاوم الفرنسين ونفي وعاد إلى الجزائر وقاد حركة الأنصار. وحينما لجأ مرة ثانية إلى بلاد المغرب، كانت المفاجأة أن سلطان المغرب وجه قواته لمحاربة الأمير، والحق أن هذا الأمر لم يكن مفاجأة كاملة فقد تعهد السلطان لفرنسا بذلك وكما اشرنا، ومن ناحية أخرى ورد في بعض الكتابات أن بعض القبائل المغربية راودت الأمير عبد القادر أن تسانده لإزالة السلطان القائم ومبايعته سلطانًا بالمغرب، وعلى الرغم من انتصار الأمير عبد القادر على الجيش المغربي، إلا أن المشكلة الرئيسية أمام الأمير هي الحصول على سلاح لجيشه، ومن ثم أرسل لكل من بريطانيا وأمريكا يطلب المساندة والمدد بالسلاح في مقابل إعطائهم مساحة من سواحل الجزائر: كقواعد عسكرية أو لاستثمارها، وبمثل ذلك تقدم للعرش الأسباني ولكنه لم يتلقَ أي إجابة، وأمام هذا الوضع اضطر في النهاية إلى التفاوض مع القائد الفرنسي "الجنرال لامور يسيار" على الاستسلام على أن يسمح له بالهجرة إلى الإسكندرية أو عكا ومن أراد من أتباعه، وتلقى وعدًا زائفًا بذلك فاستسلم في ٢٣ ديسمبر ١٨٤٧م، ورحل على ظهر إحدى البوارج الفرنسية، وإذا بالأمير يجد نفسه بعد ثلاثة أيام في ميناء طولون ثم إلى إحدى السجون

الحربية الفرنسية، وهكذا انتهت دولة الأمير عبد القادر، وقد خاض خلال هذه الفترة من حياته حوالي ٤٠ معركة مع الفرنسيين والقبائل المتمردة والسلطان المغربي.

يُقال إن نابليون الثالث استدعاه بعد ذلك وأحسن وفادته وأهداه سيفًا ورتب له في الشهر مبلغًا باهظًا من المال وعرض عليه الإقامة بفرنسا فرفض الجزائري، وسمح له بالسفر إلى الشرق سنة ١٨٥٢ فتوجّه إلى الآستانة وحصل له الإكرام والاحتفال من خليفة المسلمين السلطان عبد المجيد، وأنعم عليه بدار في مدينة بروسة، ثم استوطن دمشق، بعد توالي الزلازل على بروسة، سنة ١٨٥٥م.

انتسب عبد القادر الجزائري إلى (جمعيّة العروة الوثقى) ودعا إلى رفض التقليد، واستعمال النظر. وكان له اختصاص بمعرفة تاريخ الإسلام، واشتهر بالفصاحة، وشدة البأس والفروسيّة. كان عبد القادر الجزائري من أوائل من راقتهم نهضة العرب.. عندما طرحت صيغة الإمارة العربيّة في أجواء الحرب (الروسيّة - العثمانيّة) وأجواء (معاهدة سان استيفانو) ومؤتمر برلين، لكن رؤيته للإمارة العربية لم تخرج عن نطاق المفهوم الإسلامي للسلطة (إمارة عربية في إطار الخلافة الإسلامية) وبويع زعيمًا لهذه الحركة وأميرًا مرتقبًا على بلاد الشام.

هذا، ويسجل على الجزائري بأنه كان متعاطفًا مع الحركة الماسونيّة التي في إطار محافلها كانت تطرح طروحات الاستقلال دون أن يعرف مراميها البعيدة أو من يقفون خلفها. ولما حدثت الفتنة بين المسلمين والمسيحيين في عام ١٨٦٠م في منطقة الشام، كان للأمير عبد القادر دور فعال في حماية أكثر من ١٥ ألف من المسيحيين، إذ استضافهم في منازله.

يعتبر الأمير عبد القادر الجزائري من الرواد الذين آمنوا بالوحدة العربية تحت راية الإسلام. ومن مؤلفاته: كتاب ذكرى العاقل (رسالة إلى الفرنسيين) – وكتاب المقرض الحاد – وكتاب السيرة الذاتية. وكتاب المواقف. هذا، وقد كتب العديد من الرسائل.

توفي الجزائري بدمشق سنة ١٨٨٣م، ودفن بالصالحيّة إلى جانب الشيخ محي الدين بن عربي. نقل رفات الجزائري إلى الجزائر بعد استقلالها واحتفلت الأمة احتفالاً مهيبًا بدفن رفاته فيها حيث اجتمع نحو نصف مليون مواطن جزائري، إلى جانب أربعين وفدًا من الأقطار العربية والصديقة، وأعضاء مجلس الثورة الجزائري، ووري في مقبرة الشهداء خارج العاصمة.

▪ ميشيل عفلق

ميشيل عفلق (١٩١٠ – ١٩٨٩م)، أحد مؤسسي حزب البعث الذي أصبح فيما بعد حزب "البعث العربي الاشتراكي". ولد في بيروت لعائلة متوسطة تدين بالأرثوذكسية، تلقى تعليمه في المدارس الفرنسية في لبنان. لمع ميشيل عفلق على مقاعد الدراسة وانتقل إلى باريس ليلتحق بجامعة البنائيون حيث بلور أفكاره الحزبية. تأثر عفلق بحركة الانبعاث الإيطالي بزعامة "جوزيبي مازيني" فحملها

بأهدافها إلى الواقع العربي ولم يكن الفكر البعثي وليد ثقافة ميشيل عفلق بل استورد عفلق فكرة الانبعاث الإيطالي بأهدافها (الوحدة - الحرية - الاستقلال). ولكون كثير من الدول العربية نالت استقلالها نسبيا مزج عفلق مبدأ الاشتراكية ليكون الفارق البسيط مع فكرة مازيني (الانبعاث الإيطالي).

وبعد رجوعه إلى لبنان عام ١٩٣٣، عمل عفلق مدرسًا وبدأ يبشر بأفكاره في أوساط الطلاب والشباب ونشط في الوسط السياسي. قام عفلق عام ١٩٤١ بتكوين أول جماعة سياسية منظمة باسم الإحياء العربي التي أصدرت بيانها الأول في فبراير من نفس العام. وما لبثت هذه الجماعة أن وضعت مبادئها القومية موضع التنفيذ عندما أعلنت تأييدها لانتفاضة رشيد عالي الكيلاني في العراق ضد الاحتلال البريطاني عام ١٩٤١، وأسست "حركة نصرة العراق". وبمساعدة صلاح الدين البيطار والدكتور مدحت البيطار، عقد المؤتمر التأسيسي في ٧ مارس عام ١٩٤٧م في بيروت، وانتخب ميشيل عفلق عميدا للحزب. عام ١٩٥٢ تم دمج حزب البعث العربي مع الحزب الاشتراكي بقيادة "أكرم الحوراني" ليصبح حزب البعث العربي الاشتراكي.

حرص ميشيل على حرية الرأي والتعبير والاهتمام بحقوق الإنسان والالتفات إلى طبقة المجتمع الدنيا، إلا أنه تم تبني حزب البعث كنظام حكم في سورية والعراق. كلٌ على حدة، لم يطبّقا توصيات ميشيل التي دوّنها في مؤلّفاته (المصدر غير مؤكد).

كان ميشيل عفلق من أبرز الداعين إلى وحدة سورية ومصر، ولعب دورًا بارزا في تحقيق الوحدة بينهما عام ١٩٥٨م. ومع كونه الأب الروحي لحزب البعث الحاكم في سورية منذ عام ١٩٦٣م، إلا أنه لم تكن لميشيل تلك الصلات الوثيقة بالحكومة البعثية، وفي النهاية، اضطر عفلق للهرب إلى العراق حيث وصل البعثيون إلى سدّة الحكم للتو، وبالرغم من تعارض أفكار حزب البعث العراقي مع تعاليم عفلق، إلا أن الرئيس العراقي السابق "صدام حسين" قد قلده منصبًا شرفيًا في حزب البعث العراقي ليعطي الشق العراقي دعمًا أكبر من الشق السوري . تعامل البعث العراقي

مع اعتراضات عفلق الحزبية بالتجاهل المتعمّد. وعند ممات عفلق عام ١٩٨٩م، أقامت الحكومة العراقية تأبينًا مهيبًا لمماته ودفنته في بغداد في قبر مزخرف تحت قبة زرقاء في الحديقة الغربية لمقر القيادة القومية لحزب البعث في بغداد. وادّعت الحكومة العراقية آنذاك اعتناق ميشيل الإسلام قبل مماته إلا أن المقربين لايتفقون كلهم على صحة هذا الخبر.

في تشرين الثاني ٢٠٠٣م قامت قوات الاحتلال في العراق بتدمير قبر ميشيل عفلق أثر قرار مجلس الحكم الانتقالي باجتثاث البعث. العديد من الجهات استنكرت ذلك العمل. وفي آذار ٢٠٠٤ أحبط الأردن محاولة تهريب شاهد القبر الخاص به إلى الأردن.

▪ الدكتور محمد عمارة

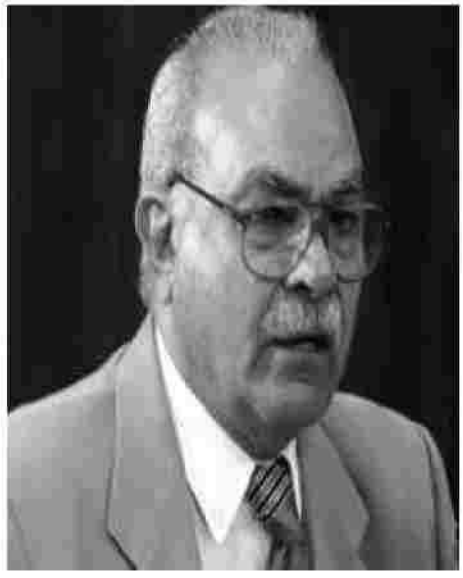

هو المفكر الإسلامي "محمد عمارة مصطفى عمارة" المؤلف والمحقق وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر (القاهرة).

ولد الدكتور عمارة في كفر الشيخ سنة ١٩٣١م. درس في كتاتيب قرية "قلين" مسقط رأسه فحفظ القرآن وجوده. وبدأت تتفتح وتنمو اهتماماته الوطنية والعربية وهو في سن صغيرة. أول مقال نشرته له صحيفة (مصر الفتاة) بعنوان (جهاد عن فلسطين). حصل على الدكتوراه في العلوم الإسلامية تخصص فلسفة إسلامية (كلية العلوم – جامعة القاهرة ١٩٧٥م).

معروف عن الدكتور محمد عمارة بأنه كان يساريًا متطرفًا في شبابه إبان فترة توهج الفكر الماركسي اليساري في بلاد المسلمين، ثم تحول عنه في بداية السبعينات لما رأى كما يدعي "سلبيته القاتلة" وأنه مجرد وافد على بلاد المسلمين، ومن ثم توجه عمارة إلى ما يسميه "الفكر العربي الإسلامي العقلاني المستنير". قال أكرم ذياب عن الدكتور عمارة وقد نشر بحثا موسعا للرد على أفكار عمارة أن الأخير عاش سلسلة من التحولات الفكرية وقد مر بأطوار من الماركسية إلى الاعتزال فالفلسفية إلى غير ذلك. والشيء نفسه قاله عنه الدكتور محمد عباس إنه واحد من كوكبة لامعة صادقة هداها الله فانتقلت من الفكر الماركسي إلى الإسلام. حصل الدكتور عمارة على العديد من الجوائز والأوسمة والشهادات التقديرية والدروع من مصر ومن البلاد العربية.

تناول الدكتور عمارة في أبحاثه العديد من سير أبرز المفكرين أمثال، جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهم، كما تناول أعلام الصحابة، عمر بن الخطاب وأبا ذر الغفاري وعلي بن أبي طالب، وكتب عن تيارات الفكر الإسلامي القديمة والحديثة وعن أعلام التراث ولم يبخل بالنقد الصريح.

من مؤلفات الدكتور محمد عمارة: الخطاب الديني بين التجديد الإسلامي والتبديل الأمريكاني ،والغرب والإسلام - أين الخطأ ..وأين الصواب؟ ،ومقالات الغلو الديني واللاديني، والشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية ،وكتاب مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية ، أزمة الفكر الإسلامي الحديث، والإبداع الفكري والخصوصية الحضارية ،وغيرها كثير. هذا، وقد أسهم عمارة في العديد من الدوريات الفكرية المتخصصة، وشارك في العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية،

وهو من الرواد الذين حاولوا تقديم مشروع حضاري نهضوي للأمة العربية والإسلامية في المرحلة التي يعيش فيها.

أهم ما يميز فكر الدكتور عمارة هو إيمانه ودفاعه عن وحدة الأمة فقد نعته العلمانيون بأنه المنظر للحركة الإسلامية وهم يقصدون توجيه أنظار السلطة الحاكمة نحوه كمعارض للنظام. ألف الكثير من الكتب والدراسات وله بحوث كثيرة في الإسلام وأعلام الإسلام والشريعة والفلسفة.

الدين عند الدكتور عمارة لا دخل له في أمور السياسة والحرب وأمور الوطن الدنيوية، ويتدخل الدين في أمور العقائد والعبادات فقط! وهذا فكر علماني وإلا ماذا تكون العلمانية إن لم تكن كذلك؟! ويأخذ على الدكتور عمارة منتقدوه دعوته إلى تغريب المرأة المسلمة، متابعة منه للعصريين من أمثال "قاسم أمين" تلميذ الشيخ محمد عبده. لهذا يسمي نهجه بالتيار الإسلامي المستنير.

من أتينا على ذكرهم من الرواد القوميين والمفكرين العرب، الذين قدموا للأمة العربية بحوثا وآراء ومواقفَ مشرفة في منعطف تاريخي حاد، الذين ستظل أفعالهم خالدة أبد الدهر. ما هؤلاء إلا مثال لرعيل طويل من آخرين ممن لا يقلون عنهم قومية وانتماء وشجاعة وإيمانا بالمصير العربي الواحد ويستحقون التقدير والاعتبار. ولولا أن مساحة النص لا تسمح بالتوقف عند السيرة الذاتية لكل واحد منهم، لما أضعنا وقتا إلا ودوَّنا ما نستطيعه. من أمثال هؤلاء: جمال الدين الأفغاني - المؤرخ شفيق غربال – ياسين الحافظ – رفاعة الطهطاوي – الدكتور علي عبد الرازق – هاشم العطار – فارس الحلبة – محمد فاروق الخالدي – رئيف خوري – عزيز العظمة – الشيخ كشك – الشيخ الغزالي، وغيرهم.